روايات مصرية للجيب

حالة مستحيلة

حالات خاصة

مذكرات طبيب نفسي ،
يصارع للحفاظ على حياته ،
والحفاظ على سلامة عقله .

3

FAYROUZ2006
www.dvd4arab.com

مقـــدمـة

من منا لم يحتاج إلى شخص يتكلم إليه بحرية فينصت له باهتمام ؟ من منا لم يحتج إلى أخ ليشاركه همومه ومشكلاته ؟ من منا لم يحتج إلى صديق مخلص يسديه النصيحة ؟ من منا لم يحتاج إلى طبيب نفسى ؟

أعرفكم بنفسى .. د. (ياسين العوضى) .. استشارى الطب النفسى وعضو الاتحاد العالمى للصحة النفسية .

ستلتقون معى فى كل عدد مع حالة نفسية كنت أعالجها وكانت لى جلسات معها .. ستعتادون على هذه الجلسات العلاجية .. وربما تدمنونها ..

إن النفس البشرية أعقد من أن نفهمها على مر العصور .. وهذه السلسلة هى محاولة متواضعة لتأكيد هذا المضمون .

بالنسبة لاسم السلسلة فأنا أرى أنه مناسب ؛ لأنى أتحدث عن حالات خاصة بالفعل .. ولأن معظم هذه الحالات يبدءون حديثهم بجملة : « أنا حالة خاصة جدًا يا دكتور » .. وكأنهم جاءوا ليدهشونى فقط ، وليس أملاً فى الشفاء ..

بالنسبة لأسماء الروايات .. ستبدأ دائمًا إن شاء الله بكلمة (حالة) .. يليها اسم المرض النفسى مثل (حالة هستريا Hysteria)

أوالوصف الذى وضعه المريض لحالته مثل (حالة **الحاسة** السادسة) أو وصفى للحالة مثل (حالة نادرة جدًا) .

وقد استخدم اسم المريض مثل (حالة الآنسة شيرين) أواللقب مثل (حالة بيكاسو) أو الوظيفة مثل (حالة المحولجى) ... إلخ .

وقد استخدم كلمة أو جملة اعتادت أن تقولها الحالة .. فلا تندهش عزيزى القارئ إن وجدت (حالة .. اعترض) عنوانًا لرواية .. وإذا اعتبرنا صاحب العمارة حالة فإنه (حالة كلهم أعدائى) .. وهكذا .

سنتعرف ـ بإذن الله ـ الأمراض النفسية .. سنتكلم عن الأعراض العضوية والأعراض النفسية .. ونتناقش فى طرق العلاج ..

سنتحدث عن الهلاوس .. هل تسمع هذا الصوت المخيف ؟ هل ترى هذه الفتاة العرجاء ؟ هل تشم هذه الرائحة الزكية ؟ هل تجلس بجوارى الآن ؟

سنحاول تفسير أحلامنا بوجهة نظر نفسية .. سنجيب سؤال : لماذا حلمنا بذلك ؟

سنحلل العقد النفسية .. من هو (أوديب) ؟ هل سمعت عن (إلكترا) ؟

سنسألك عن الفوبيا (Phobia) ؟ هل قرأت عن البارانويا (Paranoia) ؟

هل تعانى من الوسواس القهرى ؟ هل تتحدث أثناء نومك ؟ هل تسير أثناء نومك ؟ هل تنام بكثرة ؟ لماذا لا تستطيع النوم ؟

سنتأمل الحيل الدفاعية .. لماذا نمارسها بكثرة ؟ هل هى صحية ؟ وسنعرف الكثير عن الصراعات النفسية .

سنتساءل فى حيرة : من أنت ؟ هل (أنت) كما ترى نفسك ؟ أم (أنت) كما تريد أن تكون ؟ أم (أنت) كما يراك الآخرون ؟ أم (أنت) شخص آخر ؟

ستكتشف أنك لست وحيدًا .. هناك (الأنا) و(الهو) و(الأنا الأعلى) .

ستعرف كيف تتعامل مع الآخرين ؟ كيف تفهم الآخرين ؟.. وقبل كل ذلك سنساعدك لكى تفهم نفسك ؟

سنتطرق لمعظم فروع علم النفس الكثيرة التى تزيد يومًا بعد يوم كعلم النفس الاجتماعى والحربى والصناعى والإدارى وغيرها .

أمـــا بالنســـبة لعلـــم نفـــس الخـــوارق الباراســـيكولوجى (Parapsychology) فلى معـــه صـــولات وجـــولات حيث يتمتـع بإثارة وجاذبية تجعلانى أتورط فيه متعمدًا بين الحين والآخر ..

أيكفى ما قلته ليكون مقدمة ؟ فلنبدأ القراءة إذن .. ولكن مهلاً ..

يجب أن تعلموا من البداية أننى لن أستخدم الأسماء الحقيقية للمرضى ، لأنه لا يجب أن أصرح باسم الحالة .. إن الطبيب النفسى يجب أن يحافظ على أسرار مرضاه وعلى شرف مهنته كأى طبيب آخر ..

و ... كأى صاحب مهنة أخرى .

د. ياسين العوضى

1 نهاية و... بداية ..

دخلت الشقة .. كان التجمع شديدًا جدًّا بالداخل .. الأمر لا يطمئن أبدًا .

أين هى ؟ ولِمَ هذا التجمع هنا ؟ ما الذى حدث ؟

ومن قلب الزحام .. ظهر أمامى فجأة ضابط .. قال لى :

ـ د. (ياسين العوضى) ؟

ـ نعم .

صَمَتَ للحظات ، ثم قال بحزن :

ـ البقاء لله .

اقتحمت الزحام ، وقلبى يخفق من القلق والتوتر .. لابد أن أراها .

سمعت الضابط خلفى يقول :

ـ لقد انتحرت .

نظرت إلى جسدها الساكن على الأرض .. ثم التفتُّ إليه وقلت منزعجًا :

ـ لماذا تقول هذا ؟

ـ الأمر واضح ولقد كتبت رسالة قبل موتها تؤكد فيها عزمها على الانتحار .

قلت له مندهشًا :

ـ رسالة !

ـ نعم .. رسالة موجهة لك يا دكتور .

تمالكت نفسى ومنعت الدموع من السقوط ، وخرجت الكلمات منى بصعوبة :

ـ هل يمكننى .. أن أرى .. هذه الرسالة ؟

ـ بالطبع يا دكتور .

وفى خلال ثوان .. كنت أمسك ـ بيد مرتعشة ـ الرسالة وأقرؤها .

أكتب هذه الرسالة إلى حبيبى (ياسين العوضى) ..

نعم .. مازلت حبيبى .. مازلت أحبك ..

رغم كل شىء مازلت أحبك .. وسأموت ، وأنا أحبك ..

لكن .. لن أغفر لك أبدًا ما حدث .. لأنى لم أتوقع منك الخيانة أبدًا .

لن أستطيع نسيان ما رأيته .. ولن أستطيع الحياة معك .. ولن أستطيع الحياة مع غيرك .. ولن أستطيع الحياة بدونك ..

لذا قررت إنهاء حياتى بهذه الطريقة الهادئة لأتخلص من حبك وأخلصك منى .

أتمنى لك حياة سعيدة مع زوجتك (جميلة) .. وأتمنى ألا تخونها كما خنتنى معها .

الوداع

المخلصة إلى الأبد

خطيبتك .. (نادين)

هذه لم تكن البداية أبدًا ..

بل هى النهاية ..

النهاية المؤلمة ..

أما البداية كانت فى عيادتى ..

عندما ..

* * *

سألت (وائل) الممرض :

ـ من بالخارج الآن ؟

ـ مريضة واحدة اسمها (جميلة) .. وهى جميلة فعلاً .

نظرت للمرض نظرة معاتبة ، ثم رددت الاسم :

ـ (جميلة) !

ـ نعم .. اسمها (جميلة الـ ....) .. أخ .. نسيت الاسم مرة أخرى .. إنه اسم غريب .

ابتسمت وقلت له :

ـ حسنًا .. أدخلها وسوف أعرف الاسم منها .

كانت الساعة السادسة تقريبًا حين فتحت السيدة (جميلة) الباب ،

واتجهت إلى مكتبى ؛ لتصافحنى بمنتهى الرقة والبرودة ثم ..

ـ الاسم ؟

ـ جميلة الصقرى .

ابتسمت عندما تذكرت نسيان الممرض للاسم .. الاسم ليس صعبًا لهذه الدرجة .

اسمها جميلة الصقرى .

سنها .. أعتقد أنها فى الخامسة والثلاثين تقريبًا .

وبالنسبة لوصفها .. سأكتفى بقولى : إنها جميلة .. وأترك الباقى لخيال القارىء .

ـ « تفضلى .. الشيزلونج أفضل » .

قلتها لها قبل جلوسها على المقعد .. لكنها لم تعر عبارتى أدنى اهتمام ، وجلست فى هدوء ثم خلعت نظارتها السوداء ، وهى تقول بعصبية :

ـ أنا لست مريضة .

على الأقل عرفت أنها سمعتنى .. جلست على مقعدى وأنا أتأملها .. لاحظت توترها منذ اللحظة الأولى .. فكرت أن أسألها عن سبب هذا التوتر لكن ..

ـ « أكره الأطباء النفسيين » .

كانت هذه هى الجملة التى بدأت بها حديثها .. قالتها فجأة وكأنها تقذف قنبلة فى وجهى .. ثم صمتت منتظرة رد الفعل .. (آثار انفجار القنبلة) .. لكنها لم تجد شيئًا .

لقد استقبلت جملتها - التى سمعتها مرارًا من قبل - بصدر رحب وكأن الأمر لا يعنينى بالمرة .. لدرجة أنى لم أسألها عن السبب ، وكأنى أعمل فى مجال آخر بعيد كل البعد عن الطب النفسى .. أو أن ما قالته شىء بديهى لا يستحق التعليق .

طبعًا أثار هذا دهشتها ..

حسنًا .. إن كانت تريد إثارة غضبى فلتبحث عن طرق أخرى .. سألتها بهدوء :

- لماذا ترفضين الجلوس على الشيزلونج ؟

نظرت لى بغضب وقالت :

- لأنى لست مريضة .

عدت بظهرى للوراء وقلت :

- حسنًا .. يجب أن تعلمى شيئًا .

لم يبد عليها الاهتمام .. لكنى تابعت :

ليس من الضرورى أن تكونى مريضة بمرض نفسى حتى تأتى إلى العيادة ، هناك كثيرون يأتون إلى العيادة لمجرد أنهم يريدون

شخصًا آخر يشاركهم مشاكلهم .. فيأتون ليتكلموا .. ليتكلموا فقط .. حتى إنهم أحيانًا لا يريدون سماع كلمة واحدة منى .

ـ حقًا ؟

ـ نعم .. ولابد أن تغيرى وجهة نظرك فى الطبيب النفسى .

أخفت عينيها من جديد بنظارتها السوداء ، ثم قالت :

ـ على أية حال أنا لست مريضة ، ولا أعانى من أى مشاكل .

ثم صمتت ..

هذه البداية لا تبشر بخير . أعتقد أنها سترهقنى فى العلاج .. يبدو أننى سأقضى هذه الجلسة كاملة فى إقناعها بالتحدث ، فتبدأ التنفيذ فى الجلسة الثانية .. ولكنى لست مستعدًا لهذه الجلسة الأولى .. أريد أن أبدًا بالجلسة الثانية على الفور .. لذا قلت لها :

ـ كيف سنبدأ الجلسة وأنتِ تقولين أنك لا تعانين من أى شىء ؟

ـ ومن قال أننى أحتاج إلى جلسة ؟!

وصمتت مرة أخرى ..

من الواضح أنها مصممة .. مصممة على الصمت .. قلت :

ـ حسنًا .. لماذا جئت إلى عيادتى اليوم ؟ اذكرى لى سببًا .. طبعًا لم تأتى لتخبرينى برأيك فى الأطباء النفسيين .

لم ترد .. عدت أكرر سؤالى .. ربما لم تسمعنى جيدًا .

ـ لماذا جئت إلى عيادتى اليوم ؟ ما هو السبب الذى ...

ضربت سطح المكتب بقبضتها ، وقالت وفى عينيها نظرة غاضبة :

ـ لأننى لا أعانى من أى شىء ، ولا أحتاج إلى أى جلسات علاج .. هذا هو السبب يا دكتور .. هل استرحت الآن ؟

* * *

2 الجمال الصامت ..

سألت (جميلة) ، وهى ما زالت جالسة أمامى على المقعد :

ـ هل تعنين أن مشكلتك هى أنك لا تعانين من أى مشاكل ؟ وهل هذه تعتبر مشكلة ؟

صاحت غاضبة ، والشرر يتطاير من عينيها :

ـ ومن قال أننى أعانى من مشاكل ؟

ثم عادت لصمتها من جديد .. فقلت بهدوء :

ـ هل يمكنك أن تخبرينى بما يجول فى ذهنك ؟

ـ .....

ـ لماذا لا تردين ؟ أجيبى عن سؤالى من فضلك .. لو ظللت على هذه الحالة لن تكون الجلسة مثمرة أبدًا .

صاحت غاضبة :

ـ قلت لك من قبل .. أنا لا أحتاج إلى أى جلسات علاج .

ثم خيم الصمت من جديد على المكان .. يبدو أننا سنقضى الجلسة فى صمت يتخلله لحظات كلامية .

كيف أبدء الجلسة مع هذه السيدة ؟ كيف أشجعها على التحدث ؟

من الواضح أنها من النوع الصامت الكتوم .. هذا النوع أكثر تعرضًا للأمراض من غيره .. ويرهقنى جدًا فى العلاج .

أما النوع الثرثار فهو أفضل زبائنى .. قد يسبب لى الصداع أحيانًا ولكنى أعالجه بفضل الله (سبحانه وتعالى) أسرع من الآخرين .. فعادة لا يحتاج إلى جلسة ثانية .

قلت لها مشجعًا :

ـ اسمعينى جيدًا .. لقد خرجت من بيتك اليوم متوجهة إلى عيادتى بناء على موعد مسبق .. ثم دخلت العيادة .. وجلست .. وانتظرت دورك .. ثم دخلت الآن .. وجلست أمامى على هذا المقعد .. كل هذا وراءه سبب .. دافع قوى .. أريد معرفته .. ولا تقولى لى أنك جئت لأنك لا تعانين من أى مشاكل .. من منا لا يعانى من المشاكل ؟!

كلنا يتعرض لها .. ليس من المؤسف أن تواجهنا مشكلة .. المؤسف هو ألا نستطيع مواجهتها ، ونزعم العكس .. المؤسف هو أن نخجل من المصارحة بها .. حتى إلى أقرب المقربين إلينا .. المؤسف هو أن نعتقد أننا قادرون على حل مشاكلنا بأنفسنا ، ونحن لا نملك القدرة على ذلك .

أعتقد أنها تدبر ما قلته فى رأسها .. هذا يعنى أنها بدأت تستجيب ، فتابعت :

ـ ليس من الضرورى أن تعتبرى هذه الجلسات جلسات علاج .. اعتبريها جلسات دردشة .. تخيلى أن هذه ليست عيادة .. اعتبريها مطعمًا .. قاعة مؤتمرات .. ناديًا رياضيًا .. مقر جمعية .. أى مكان ترتاحين فيه .. المهم هو أن تتكلمى بحرية .. دون تكلف .. أريد أن أسمع كل ما يخطر ببالك دون تنسيق أو تدقيق أو تنميق .. انسى أن الجالس أمامك طبيبًا نفسى .. اعتبرينى شخصًا آخر .. اتفقنا ؟ أنا لست طبيب نفسى ..

أنا شخص آخر ، وليكن ...

قاطعتنى بعد سنوات من الصمت الرهيب قائلة :

ـ ولِمَ كل هذا ؟ أنا لا أريد التحدث فى أى شىء إطلاقًا .

الحمد لله .. تكلمت أخيرًا .. لقد اعتقدت للحظات أنها فقدت النطق .. لكن ..

ليتها ظلت صامتة ..لقد أعلنت لى عزمها على عدم التحدث ، ثم عادت لصمتها من جديد .. يبدو أنها من بنات الصمت .. قلت لها :

ـ ما الذى تريدينه ؟

ـ الهدوء .. السكون .. الصمت .

حسنًا .. على الأقل عرفت الآن مِمَّ تشتكى بالضبط ؟.. من

الواضح أنها تشكومن الضوضاء .. ترغب فى الصمت .. يبدو أنها ترى أن الصمت من ذهب .. وليكن .. سأنفذ لها رغبتها .. وسنقضى الجلسة فى صمت .

أنا نفسى أحتاج إلى الهدوء الآن .. بعد هذه الساعات التى قضيتها فى الاستماع للمرضى .. سأريح أذنى قليلاً الآن .. وسأستغل هذه الفترة لأستعيد صفاء ذهنى وأفكر فى بعض الأمور .. ذكرونى أن أشكر هذه السيدة على هذه المنحة .

* * *

جلسنا صامتين لمدة نصف ساعة ..

تقريبًا ..

مرت هذه المدة دون أن يتفوه أحدنا بكلمة .. لو انتهت الجلسة هكذا فسوف أكتبها قصة قصيرة .. تحمل عنوان (حالة الصمت الرهيب) .. لن أستخدم اسم (حالة صمت الحملان) حتى لا يعتقد القراء أننى أتحدث عن الفيلم .

ظللت صامتًا .. لكنى لم أظل ساكنًا .. تصفحت الجريدة .. كتبت بعض الملاحظات عن مرضَى اليوم .. وهكذا .

وتركت السيدة (جميلة) تستمتع بالهدوء والسكون .. لدرجة

أنى توقعت أن تشكرنى عند نهاية الجلسة على هذا الهدوء .. ثم تنصرف فى سلام .

هل نامت ؟ ربما .. هل تعانى من النوم القهرى ؟ احتمال .. هل جاءت إلى عيادتى خصيصًا لتنام ؟ من يدرى ؟ هل تعانى هذه السيدة من اضطرابات النوم ؟ ربما ..

كل هذه الأسئلة على أساس أنها نامت ، ولكن ..

لقد نهضت فجأة .. وبكامل نشاطها .. يبدو أنها كانت تمارس رياضة روحية ما .. لكن .. ألم تجد مكانًا أفضل من عيادتى لهذا ؟

المهم .. أن تمثال الجمال النائم خرج أخيرًا من سكونه .. ليصيح بأعلى صوته :

ـ ما رأيك ؟

انتفضت من مكانى بسبب صيحتها المفاجئة .. هذه الصيحة التى أكدت لى أنها لم تكن نائمة .. وأظهرت لى أنها تمتلك حنجرة قوية تصلح للغناء فى الأوبرا .. قلت لها بعد أن تخطيت المفاجأة وتابع الدم سيره فى عروقى من جديد :

ـ شىء رائع .. إن الهدوء جميل .. أنا أشكرك على الـ ....

قاطعتنى فجأة بطريقة غير لائقة و ...

ـ أقصد .. ما رأيك فىّ .. أنا ؟

أعتقد أن سؤالها غامضًا إلى حد ما .. ما الذى ترمى إليه بالضبط ؟ قلت متوجسًا :

ـ كنت رائعة فى الصمت .

من ملامح وجهها فهمت أن إجابتى لم ترضها .. قالت لى ، وهى تقطب حاجبيها :

ـ أنت لم تفهم سؤالى بعد .

ـ أتفق معك فى هذا .

أشارت إلى نفسها ، وعادت تكرر السؤال فى إلحاح قاتل :

ـ ما رأيك فىّ .. فىّ أنا ؟

ماذا أقول لها ؟ ما الإجابة التى تريدنى أن أنطقها ؟ فلتخبرنى بها وسوف أقولها على الفور دون تفكير .. ستريحنى وستستريح .. قلت لها مترددًا :

ـ جميلة ؟!

فوجئت بها تبتسم فى خجل ، وتقول بصوت هادئ رقيق سمعته بصعوبة :

ـ شكرًا يا دكتور .

ثم تبدلت ملامحها فجأة ، وأكملت بغضب :

ـ ولكنى لا أريد رأيك فى ذلك .. أنا أسألك باعتبارك طبيبًا نفسيًا .. ما رأيك فى ؟

ـ هل يمكنك أن تحولى سؤالكِ إلى سؤال (صواب أو خطأ) .. حتى لا تضيع الجلسة فى محاولة فهم سؤالك ؟

ـ أعنى بوضوح .. بعد ملاحظتك لى طيلة هذه المدة .. ما رأيك فى حالتى ؟ هل أنا إنسانة طبيعية جدًا أم مختلة عقليًا ؟ ألا ترى أنى حالة عادية جدًا يا دكتور ؟ أخبرنى يا دكتور .. ألست إنسانة عادية ؟

أعتقد أن هذه هى الحالة الوحيدة التى جاءتنى العيادة لتخبرنى أنها حالة عادية جدًا .

ـ نعم .. أعتقد أنك إنسانة طبيعية .

قلتها لها باستسلام .. لكنى فوجئت بها تقول :

ـ حسنًا .. أريد منك شهادة بذلك .

ـ ماذا ؟

* * *

3 الشـــــــهادة ..

صمتت السيدة (جميلة) للحظات ، ثم قالت بعد أن أخرجت زفيرًا طويلاً :

ـ أريد منك شهادة بأننى بكامل قواى العقلية .. ولا أعانى من أى مرض نفسى أو عقلى .

ـ مهلاً .. أريد أن أفهم الموضوع بالضبط .

التقطت نفسًا عميقًا ، وقالت :

ـ لقد رزقنى الله بطفلين .

أخيرًا .. ستتخلى عن سياسة الصمت وسوف تتحدث عن نفسها و ...

ـ لا يمكنك أن تتخيل مدى روعة الأطفال إلا إذا حظيت بهم .. جلست معهم .. استمعت إليهم .. لعبت معهم .. إن الأطفال نعمة .. هل لديك أطفال يا دكتور ؟

ـ لا .. لم أتزوج بعد .

وشرد ذهنى للحظات فى أميرتى (نادين) خطيبتى .. زوجتى قريبًا بإذن الله .. متى سيأتى اليوم الذى أدخل فيه شقتى فأجدها تنتظرنى بابتسامتها الرقيقة ؟ كيف ستكون حياتى أجمل معها ؟ كيف ستكون أمًّا رائعة لأطفالى ؟ كيف سـ ...

قطعت السيدة (جميلة) تخيلاتى قائلة :

ـ إن الأطفال مصدر السعادة فى هذا الكون .. وتبدأ هذه السعادة منذ الأشهر الأولى للحمل .. الواحدة منا وهى تحمل جنينها تشعر بأنه يهمس لها .. تحتضنه ويحتضنها .. يخرج إلى الدنيا بمشيئة الخالق ؛ ليملأ حياتها بهجة وفرحًا وسعادة .. تنسيها عذاب الحمل وألم الولادة .. سعادة تجعلها تتمنى لو تستطيع أن تحمل ، وتلد كل يوم .. ثم تغذيه وتطعمه دفئًا وحنانًا .. تشعر بأنه جزء منها وأنها جزء منه .. تشتاق لرؤيته كل دقيقة وكل ثانية .. تسعد لسعادته .. تشعر بالأذى إن تعرض هو له .. تشعر بالقلق إن غاب عنها لحظة .. تشعر بأنها عاشت وستعيش من أجله .. يصير هو أهم وأعز وأغلى ما تملك فى هذه الدنيا .

صمتت للحظة ، ثم نهضت من مكانها ، وأخذت تتجول فى الحجرة وهى تقول :

ـ ولكن عندما تشعر فجأة بأن هذه السعادة مهددة بالزوال ، وتكتشف أن هناك من يريد أن يحرمها منها .. يسلبها طفلها .. يحاول أن ينتزع منها أملها فى الحياة ..

ثم توقفت للحظة لتلقط أنفاسها .. ولتنظر لى بعدها بكل جدية و ...

ـ فى ظنك .. ما الذى يمكن أن تفعله ؟

ـ حسنًا .. فهمت قصدك .. ولكن ما علاقة هذا بموضوع الشهادة ؟

قالت ، وهى تستكمل جولتها فى الحجرة :

ـ طليقى سوف يأخذ أطفالى منى .

ـ هل أنت مطلقة ؟

ـ ألم أخبرك بذلك ؟

ـ لا .

ـ لقد طلقنى منذ شهور تقريبًا .. والآن يريد أن يأخذ الأطفال منى .. ولكنى لن أسمح له أبدًا بذلك .

ثم ضربت سطح المكتب بقبضتها بقوة ، وقالت :

ـ لن أسمح له أبدًا .

يبدو أن الضربة آلمتها ، لكنها أخفت ذلك .. فسألتها :

ـ هل أطفالك صغار السن ؟

ـ نعم .. (جنات) ثلاث سنوات .. و(جمال) سنتان .

ثم أخرجت صورة لهما من حقيبتها .. تأملت صورة الطفلين ، وقالت :

ـ الأم (جميلة) .. والأبناء (جمال) و(جنات) .. إمبراطورية (ج) .

ابتسمت ابتسامة خفيفة .. فسألتها :

ـ وهل الأب (ج) أيضًا ؟

ـ لا .. إنه (ق) .

ـ (قاسم) ؟

ـ لا .. (قدرى) .

ثم أخرجت صورته دون أن أطلب منها .. وقالت :

ـ (قدرى المنياوى) .. رجل أعمال .. أليس وسيمًا ؟ ألا يشبه (رشدى أباظة) ؟

نظرت للصورة جيدًا .. تعجبت جدًا من التشبيه .. يبدو أنها ما زالت مغرمة به .

ـ يبدو أنك تحبينه .

ـ مـــاذا ؟

لن أخبرها أننى لم أجد معنى لتشبيهها .. ولهذا استنتجت أنها تحبه و ...

(مرآة الحب عمياء) كما يقولون .

أخذت منى الصورتين بكل حرص وأعادتهما إلى حقيبتها .. قلت لها :

ـ لا تقلقى طالما إنهم صغار السن .. لن يستطيع طليقك أن ..

قاطعتنى قائلة :

ـ أعلم ما ستقوله .. إن أى محكمة سوف تحكم لى بحق حضانتهم .. أعلم هذا جيدًا ، وطليقى يعلم هذا أيضًا ، ويريد الاحتفاظ بهم مثلى .. لكنه لا يحبهم مثلى .. بل أنا واثقة من أنه لا يريد الاحتفاظ بهم بسبب حبهم لهم .. إنه يريد الاحتفاظ بهما ليدمرنى .. إنه يعلم جيدًا مدى حبى لهم وتعلقى بهم .. وأننى لن أستطيع العيش دونهم .

صمتت للحظات .. بدا على وجهها علامات الغضب والكراهية .. ثم تابعت :

ـ القانون فى صفى ، وسيحكم لى .. ولكن محاميه الفذ قدم له الحل الذى سيمكنه من الاحتفاظ بالأطفال .. الحل الذى أمامه قد تحكم المحكمة بسببه لصالحه ، وتنتزع منى كل أمل لى فى الحياة .. لقد اقترح عليه تقديم شهادة رسمية للمحكمة تثبت أننى مختلة عقليًا .. أى أننى غير مؤهلة لتحمل مسئولية تربية الأطفال .. فى هذه الحالة سوف تحكم المحكمة لصالحه .. وتعطيه حق حضانة الأطفال .

ـ كيف علمت هذا ؟

ـ لهذا قصة طويلة .. المهم هو أننى علمت .. وكاد قلبى أن يتوقف لحظتها حينما تخيلته ينتزع منى أولادى ، ومنذ تلك اللحظة والكوابيس المريعة تطاردنى كل ليلة .. حتى جاءتنى الفكرة بالأمس .. لماذا لا أقدم أنا أيضًا شهادة رسمية للمحكمة ، ولكنها شهادة ، تثبت أننى بكامل قواى العقلية ؟ وشهادتى تكون أمام شهادته وعلى المحكمة أن تقرر .

ـ هذه هى الشهادة التى تريدينها منى .. وهذا هو السبب .

ـ بالضبط .. إنها شهادة عادية لن تكلفك شيئًا ، ولكنها تعنى لى الكثير .. إنك بهذه الشهادة تنقذنى من الموت فلو حكمت المحكمة لصالح طليقى .. قد أنتحر إن لم أمت من تأثير الصدمة .

نهضت من مكانها ، وتجولت فى الحجرة قليلاً متأملة محتوياتها .. ثم سألتنى بغتة :

ـ ما أعز شىء لديك هنا .. فى هذه الحجرة ؟

أجبتها بتلقائية شديدة ندمت عليها فيما بعد :

ـ هذه الزهرية .

وأشرت إلى الزهرية التى على المكتب وتابعت قائلاً :

ـ لقد أهدانى إياها صديـ ...

فوجئت بها وفى أقل من ثانية تقبض على الزهرية ، وتسقطها أرضًا ؛ لتتحطم إلى آلاف من القطع الصغيرة محدثة دويًّا عاليًا .. نهضت من مكانى غاضبًا وصحت :

ـ لمـاذا فعلتِ هذا ؟

أشارت نحوى بسبابتها ، وصاحت قائلة :

ـ أرأيت .. انظر إلى نفسك .. تأمل غضبك .

هنا سمعت صوت (وائل) الممرض .. من الخارج :

ـ دكتور .. هل أنت بخير يا دكتور ؟

يبدو أن صوت التحطم كان عاليًا مما أثار ذعر (وائل) ، فطمأنته قائلاً :

ـ نعم .. لا تقلق .

ثم التفت إلى السيدة (جميلة) وقلت :

ـ لماذا فعلتِ هذا ؟

ـ لقد جعلتك تجرب شعور فقد شىء عزيز عليك . هل تأملت غضبك عندما حطمتها ، وهى فى النهاية مجرد زهرية ؟ تخيل

مقدار غضبى عندما يأتى شخص يريد أن ينتزع منى أطفالى .. هل تقدر الآن حجم المشكلة ؟

ـ نعم .. أقدره .. لقد شرحتِ الأمر واستوعبته .. لم يكن هناك داع لهذه التجربة العملية .

قالت وهى تتأمل الدمار الذى أحدثته :

ـ أنا آسفة يا دكتور على ما حدث للزهرية .. يمكننى أن أ ...

قاطعتها قائلاً بهدوء :

ـ لا عليكِ .. إنها مجرد زهرية .. كما قلت .

مرت لحظات من الصمت قبل أن تسألنى :

ـ هل ستعطينى الشهادة يا دكتور ؟

فَرَدَ الصمت جناحيه على المكان للحظات .. مرت عليها كدهر .. فقالت بغضب :

ـ لماذا لا تردُّ علىَّ يا دكتور ؟

ـ اعذرينى .. لا أستطيع أن أعطيك مثل هذه الشهادة .

ظهرت على وجهها كل انفعالات الغضب والسخط والمقت والبغض والكراهية ... إلخ ..

ـ هل تدرك نتيجة قولك هذا ؟ هل تعلم أن هذه الشهادة هى الأمل الوحيد بالنسبة لى الآن لكى أربح القضية ؟ هل تعلم أنك برفضك هذا تحكم بحرمانى من رؤية أطفالى مدى الحياة ؟ هل تعلم أنك بذلك تحكم علىَّ بالإعدام ؟

ـ اهدئى واسمعينى وافهمينى جيدًا .. هناك أطباء وهيئات رسمية بإمكانهم إعطائك مثل هذه الشهادة .. أما أنا فلا أستطيع .. إنها مسئولية خطيرة .. فمع احترامى لك كيف يمكننى أن أكتب مثل هذه الشهادة ، وأنا لم أجلس معكِ سوى نصف ساعة أو أكثر قضيناها فى صمت تام ؟ كيف يمكننى أن أجزم أنك سليمة تمامًا ؟ وأرجو ألا تعتبرى حديثى هذا تجريحًا .

ـ حسنًا يا دكتور .. اكشف علىَّ بنفسك وتأكد .. أجر كل الاختبارات اللازمة .

ابتسمت قائلاً :

ـ لديك فكرة خاطئة عن المرض النفسى .. نحن لا نستعين بالأدوات كثيرًا فى مجالنا .. والاختبارات حل لا بأس به ولكنها لا تصلح دائمًا .. ولكن يمكننا أن نجرى بعض الفحوصات ووضعك تحت الملاحظة لفترة ، وبعد ذلك يمكننا استخراج هذه الشهادة لكِ .. ولكن يجب أن تعلمى أن المرض النفسى من السهل إثبات وجوده ، ولكن من الصعب إثبات عدم وجوده .

قالت بغضب :

ـ أنا لا أريد الذهاب إلى مثل هذه الهيئات .. إن هذا يعنى أننى مريضة .. أنا أريد منك شهادة عادية .. مجرد شهادة .. ولو تريد أن أدفع لك أى مبالغ مقابل ...

قاطعتها ونهضت من مكانى قائلاً :

ـ يمكنك الانصراف .. الجلسة انتهت .

قالت لى ومن عينيها تطل نظرات تفيض بالحزن والأسى والحسرة و ... إلخ :

ـ أنا آسفة يا دكتور .. لا أعرف كيف قلت ذلك .. أكرر أسفى مرة أخرى يا دكتور .

عدت إلى مقعدى ، ومسحت غضبى بممحاة جيدة ، ثم قلت لها بهدوء :

ـ كما أخبرتك .. أنا لا أستطيع أن أعطيك مثل هذه الشهادة .

ـ حسنًا .. هل يمكنك أن تعطينى رأيك فقط .. مجرد رأى ؟

ابتسمت وقلت لها :

ـ حسنًا .. أرى أنكِ طبيعية .. حالتك النفسية سيئة جدًا ..

فقط لأنك تتوقعين فقد أولادك .. وهذا يعنى أنها مؤقتة .. وسوف تزول بزوال السبب .. وهذا سيحدث عندما تربحين القضية ضد طليقك ، ويظل أولادك معك .

صاحت والسعادة تغمرها كأنها ربحت مليون ريال :

ـ شكرًا يا دكتور على هذا الرأى .. أهذا يعنى أنه بإمكانى الحصول على الشهادة ؟

ـ لقد قلت من قبل : إننى لا أستطـ ...

ـ أعنى .. هل يمكننى الحصول عليها من الجهات المختصة ؟

ـ نعم .. ولكن لا بد من فحوصات .. اختبارات .. وضع تحت الملاحظة .. هذا يعتمد على الجهة التى ستذهبين إليها .

ـ اختبارات .. سيسألوننى مثلاً .. ما اسمكِ ؟ فى أى يوم نحن ؟ ماذا أكلتِ ؟ هل أنتِ ذكر أم أنثى ؟

ـ يبدو انك تكثرين من مشاهدة الأفلام العربية القديمة ؟

ضحكت ضحكة صافية ، ثم قالت :

ـ هل رأيت هذا الفيلم ؟ أنه من أروع الأفلام التى شاهدتها .

مرت دقيقة من الصمت ثم ..

هل يمكن أن تجرى لى اختبارًا الآن ؟ ولو على سبيل التجربة حتى استعد له .

ـ أتريدين الأسئلة المتوقعة ؟

ضحكت قائلة :

ـ وكأنه امتحان آخر العام .

حسنًا .. أعتقد أن لدى هنا بعض الـ ....

لم أكمل جملتى ونهضت لأبحث عن الاختبارات و ...

ـ لماذا لا تفكرين فى العودة إلى زوجك ؛ لتعيشا سويًا وتقوما بتربية الأطفال معًا ، وترتاحين من كل هذه المشاكل ؟

ـ هذا لن يحدث أبدًا .. لن أعود إليه .

ـ من أجل الأطفال يمكن أن ...

قاطعتنى بحدة قائلة :

ـ لا تفكر أبدًا فى هذا الحل .. لن يحدث شىء من هذا أبدًا يا دكتور .

أعطيتها الاختبارات التى وجدتها ، وقلت :

ـ كما تريدين ولكنه حل لا بأس به .. سيجنبك أشياء كثيرة ، ويضمن لك بقاءك مع أطفالك دون خوف .

تجاهلتنى تمامًا ، وشرعت فى قراءة الأسئلة ، فأعطيتها قلمًا لتبدأ الإجابة عليها .

أمسكت بالقلم بقوة ثم ثقبت بسنه الحادة الورقة .. قلت لها مندهشًا :

ـ هذه ليست الطريقة المعتادة للإجابة على الأسئلة .

لم تعلق .. ولم تبتسم .. ولم تقم بأى رد فعل يدل على أنها سمعتنى .

رأيتها ترسم عروسة على نفس الورقة ، ثم تقوم بثقبها من جديد .. سألتها مندهشًا :

ـ ما الذى تفعلينه ؟

لم يعجبنى استهتارها بالأوراق .. لقد طلبتها منى ، فلماذا تعاملها بهذه الطريقة ؟ جذبت الأوراق منها بعنف ، وقلت لها :

ـ يبدو أنك ميالة للمزاح الآن .. حسنًا .. الجلسة انتهت .. ومبروك لطليقك من الآن .

ضحت ضحكة بريئة صافية .. ثم استعادت الأوراق ، وقالت هامسة بمرح :

ـ شششششششش .

ابتسمت لتصرفها العجيب .. أرى أمامى إنسانة أخرى تمامًا .. إنسانة مرحة .. فرحة .. بيوم عرسها أوبنجاحها فى الثانوية العامة .. لقد طردت الكآبة تمامًا .. وفى لحظة واحدة .. نست مأساتها .. نست أطفالها .. طليقها .. الكوابيس .. القضية ... إلخ .

تأملت انفعالاتها ، وهى تقرأ الأسئلة ، وتلتهمها التهامًا ..

كانت تلتهمها بالفعل .

نعم .. هذا هو ما حدث .. لقد مزقت الورقة إلى نصفين ، ثم أخذت أحدهما ووضعته فى فمها ، وشرعت تمضغه ..

تنطلق ضحكاتها ، وأنا أقول مترددًا :

ـ أنت تمزحين .. أليس كذلك ؟

أمسكت الأوراق الباقية ، وشرعت فى تمزيقها إلى جزيئات صغيرة ثم وضعت القصاصات الصغيرة على ورقة ، وقذفت بها فى سقف الحجرة ؛ لتتساقط علينا .

ثم تناولت ورقة كبيرة وكومتها فى قبضتها ، ثم حشرتها فى فمى ، وقالت ضاحكة :

ـ خووود .. كووول .. تفاااااح .

بصقت الورقة من فمى ، وقلت متأملاً حركاتها تحت المطر الورقى :

ـ أعتقد أنك لا تمزحين .

فى هذه اللحظة اكتشفت الحقيقة ..

الحقيقة المرة .

* * *

4 جنـــــون ..

كانت السيدة (جميلة الصغرى) مجنونة ..

لم أتوقع ذلك أبدًا ..

ولكنها الحقيقة .. الحقيقة المرة .

السيدة (جميلة) مجنونة .. كل ما رأيته أكد لى هذه الحقيقة .

من يصدق حدوث ذلك ؟!

أمٌ تطلب من شهادة تثبت أنها بكامل قواها العقلية .. هذه الشهادة تريدها ؛ لتتمكن من الاحتفاظ بأطفالها لأن طليقها يتهمها بالجنون ؛ لكى يربح قضيته ، ويحرمها منهم ، لكن .. هذه الأم مجنونة بالفعل .. اكتشفت ذلك الآن .

وكانت حالة خاصة أخرى ..

خاصة جدًا !

* * *

وقفت السيدة (جميلة) فى منتصف الحجرة .. يبدو أنها تنتظر الترام .. ثم تحدثت إلى أحدهم .. كانت تتناقش معه بحدة .. زادت الحدة لدرجة أنى توقعت أنها ستصفعه .. ولقد حدث ما توقعت .. وكانت صفعة قوية بحق .

ولم تكتف بصفعة بل كانت تسب .. لا أعلم من .. ولكنها كانت تسبه بشدة .. يبدو أنه قد ضايقها جدًا .

فكرت أن أتدخل لفض النزاع بينهما ولكنى آثرت السلامة .

وجلست أتابع لأعرف، كيف ستنتهى الأمور بينهما .

وطال الانتظار ..

ولكن .. فى النهاية تصالحا و ودعته .. حمدت الله أن الأمور انتهت على خير .

فوجئت بها تعود إلى الاختبارات ومعها القلم ، فاعتقدت أنها عادت إلى طبيعتها ، وسوف تكمل الاختبار فى الصفحات التى نجت من يديها لكن ..

من نظراتها الزائغة المريبة وطريقة جلوسها العجيبة الغريبة على الأرض وطريقة إمساكها للقلم أدركت أنها لا تزال فى عالمها الآخر .. فتركتها ، وانتظرت ..

وفجأة ..

تركت الأوراق والقلم ونهضت مسرعة ناحية النافذة ..

فتحتها على مصراعيها ..

لماذا ؟

وضعت يديها على إطار النافذة وحاولت أن تدفع جسدها إلى الخارج .

يا إلهى ..

ما هذا ؟

هل تريد أن تنتحر ؟

* * *

نهضت من مكانى بسرعة ، واندفعت بسرعة الصاروخ لأمنعها من الانتحار ..

طوقت خصرها بذراعى ، وحاولت جذبها بقوة إلى الداخل .. كانت تقاوم بشدة .. رغبتها فى الانتحار قوية .

من أين جاءتها هذه الرغبة ؟

فى النهاية .. نجحت فى مهمتى .. ودفعت جسدها إلى بر الأمان .. اندفعت نحو المكتب ، وأسقطت ـ فى أثناء اندفاعها ـ بعض الكتب والأقلام .

عدت لأغلق النافذة بعد أن تأكدت من سلامتها .

الحمد لله .. أنقذتها فى اللحظة الأخيرة .. لا أريد تخيل ما كان سيحدث لو تأخرت ثانية واحدة .

عدت إليها ، فوجدتها جالسة على الأرض فى هدوء تدندن بأغنية شعبية شهيرة ، وكأن شيئًا لم يكن .

وكأنها لم تحاول الانتحار منذ قليل .. فسألتها ، وأنا لا أتوقع أى إجابة :

ـ لماذا تريدين الانتحار ؟

لم ترد ..

كيف ترد ، وهى مشغولة جدًا فى اللعب بالورق وحطام الزهرية والأقلام ؟!

جلست خلف مكتبى أتساءل .. لماذا فكرت السيدة (جميلة) فى الانتحار ؟ ولماذا هنا بالذات ؟ ولماذا الآن ؟ وهل هذه هى المرة الأولى ؟ والسؤال الأهم :

هل تدرك أن هذا انتحار ؟ أم أنها كانت كالطفل الصغير لا يدرك حقيقة أنه إذا قذف نفسه من النافذة مات ؟

يجب أن أدرس حالتها أكثر ..

لابد أن أفهم .

* * *

ـ « ما كل هذه الفوضى ؟ »

سألتنى السيدة (جميلة) هذا السؤال .. من الواضح أنها قد عادت إلى رشدها الآن .. عرفت ذلك من نظرة الدهشة التى كانت تطل من عينيها ومن سؤالها .. قلت لها بتلقائية متأملا الفوضى التى تتحدث عنها :

ـ أنتِ من فعل كل هذا .

نظرت إلىّ مندهشة وصاحت :

ـ أنا ؟ هل تمزح يا دكتور ؟

ـ أنا لا أمزح .. أنتِ سبب كل هذه الفوضى بالفعل .

ـ دكتور .. كيف هذا ؟ هل أنا مجنونة ؟

لم أرد .. فقالت غاضبة :

ـ صمتك هذا يعنى أنك تتهمنى بالجنون .. وهذا اتهام خطير .. خاصة فى مثل هذه الظروف .

ثم تأملت الفوضى من جديد ، وقالت بغضب :

ـ كيف ؟ ولماذا ؟ ومتى حدث كل هذا ؟

ـ ألا تتذكرين كيف حدثت هذه الفوضى ؟

ـ لا .. بل إننى مندهشة كيف ظهرت هكذا فجأة .

ثم نظرت إلى قدميها واكتشفت غياب الـ ....

ـ أين فردة حذائى ؟ من أخذها ؟

ـ أحدهم قد قذفها من النافذة .

ـ من هذا الـ ...

قاطعتها قائلاً :

ـ أنتِ .

ـ أنا ؟! ماذا تقول يا دكتور ؟ أنا لا أقبل هذا المزاح .

ـ للأسف .. هذه هى الحقيقة .

ـ ولماذا أقذفها ؟

ـ كان هناك شخص يقف فى الخارج بضايقك .. فقذفتهِ بها .

ـ من هذا الشخص الذى تقصده ؟

ـ فى الواقع لا أعلم عنه شيئًا .. لأن النافذة كانت مغلقة .. فتحتِها فقط لحظة القذف .

ـ هل تعنى أنى توهمت وجود ذلك الشخص ؟

ـ ..... .

ـ حسنًا .. وماذا عن هذه الكتب ؟

ـ سقطت عندما منعتك من الانتحار .

ـ وهل حاولت الانتحار ؟

ـ مرتين .

ـ مرتين !

ـ نعم .. فى المرة الأولى أسقطت الكتب والأقلام ، ولكن فى المرة الثانية زحزحت المكتب من مكانه فقط .

ـ وماذا عن هذه الأباجورة ؟ من الذى أسقطها ؟ إياك أن تقول أننى ...

قاطعتها قائلاً :

ـ نعم .. أنتِ .. ولو قلتِ غير ذلك فأنا أكذب .

ـ ولماذا أفعل ذلك ؟

ـ أنتظر منكِ الإجابة .

صمتت لشهور .. ثم انهارت باكية ، وهى تغطى وجهها بيديها ، وتقول بنبرة حزن عميق تزلزل كيان من يسمعها :

ـ يا إلهى .. لقد أصبحت تعلم الآن .

نظرت إليها مندهشًا وقلت متعجبًا :

ـ أيعنى هذا أنك كنت تعلمين أنك ..... ؟

لم أكمل سؤالى .. قاطعتنى قائلة :

ـ نعم .. كنت أعلم يا دكتور .

ـ ولكن ..

ـ كنت أتمنى أن تعطينى الشهادة قبل أن تكتشف أننى ..

لم ترد إكمال الجملة .. ثم قالت ، والدموع تسيل على وجنتيها :

يا إلهى .. لقد فقدت أطفالى .. لقد فقدت كل شىء .. سيقدم طليقى الشهادة .. ولن أستطيع تقديم ما ينفى شهادته .

اتضحت الصورة كاملة أمامى الآن .. كانت تعتقد أنى سأعطيها الشهادة بمجرد أن تطلبها .. كانت تريد أن يتم هذا بسرعة قبل أن أكتشف جنونها .. قلت لها بضيق :

ـ لهذا جئت إلى عيادتى .. لأنك لو ذهبت إلى أى هيئة رسمية سوف يكتشفون ما بك .. ولن يكتفوا برفض طلبك .. بل ربما يحتجزونك .

ـ بالضبط .. وانا لن أسمح لأحد أن يأخذ أولادى منى ، أو يأخذنى من أولادى .

ـ و ماذا عن طليقك ؟ هل يعلم أنك ... ؟

ـ ربما .

تعجبت من ردها فقلت لها محاولاً الفهم :

ـ من فضلك .. أريد إجابة محددة .. هل يعلم أم لا ؟

ـ ..... .

ـ لقد قلتِ منذ دقائق أن محاميه اقترح عليه تقديم شهادة بأنك مجنونة .. فهل اقترح عليه ذلك لأنه يعلم بحالتك أم أن قصة المحامى نفسها ليست حقيقية ؟

قالت ، وهى تمسح دموعها بمنديلها الوردى :

ـ هذه كانت كذبة منى .. لقد اخترعت قصة المحامى حتى لا تشك فى الموضوع ، وتعطينى الشهادة على الفور .. خشيت أن ترفض اعطائى الشهادة لو علمت بحقيقة أمرى .

ـ أفهم من ذلك أن طليقك لا يعلم أنك ...

قاطعتنى قائلة :

ـ لا أعلم .. ولكن .. تأكد أنه لن يتوانى فى البحث عن طريقة يكسب بها قضيته ولو أنه يعلم فإنه لن يترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده .

ـ هذا يعنى أن هناك احتمال أنه لا يعلم .

ـ لقد جئت لك اليوم على افتراض أسوأ الفروض .. افتراض أنه يعلم .

قلت متعجبًا :

ـ هل من الممكن ألا يعلم الرجل الذى كان زوجك ، وعاش معك لسنوات بحالتك ؟

لم ترد .. فقلت لها :

لم تخبرينى بعد بسبب انفصالكما .. فربما كان يعلم بحالتك ، وهذا ما أدى إلى ..

قاطعتنى قائلة بحزن عميق :

ـ لا .. ليس هذا هو سبب الانفصال .. كانت هناك امرأة أخرى .. تدعى (شذى) .

ـ يمكننا أن نستغل هذه النقطة أمام المحكمة .. بالتأكيد رعاية الأم ستكون أفضل من رعاية الـ ...

قاطعتنى قائلة بحزن شديد :

ـ وهل تعتقد أن المحكمة ستفضل ترك الأطفال مع أمهم الـ ...

توقفت للحظة ابتلعت فيها ريقها ثم أردفت بحسرة وألم :

ـ المجنونة .. على أن تتركهم مع أبيهم و زوجته الجديدة ؟

كانت لحظة قاسية ، وهى تعترف أمامى بمثل هذا الاعتراف .. اعتراف بأنها أُم مجنونة .. أمٌ لا يمكنها الاحتفاظ بأطفالها بسبب جنونها .

قلت لها محاولاً تهدئتها :

ـ يبدو أنه ليس أمامنا سوى الحل الذى اقترحته من قبل .. أن تعودى إليه ، وتقبلى بالعيش معه من أجل أولادك .

ـ لا .. لن أعود إليه .. لن أعود أبدًا .

ـ ولكن ..

ـ و تأكد أنه أيضًا لن يقبل بهذا الحل .

قالتها بمرارة .. مرارة الأنثى التى تشعر أنها لم تعد مرغوبة من قِبل الرجل الذى أحبته ، وعاشت معه سنوات .. وفى نفس الوقت هو أب لأطفالها .

تابعت قائلة بصوت متحشرج :

ـ لا يوجد سوى حل واحد .. أكسب به قضيتى ، وأحتفظ بأولادى للأبد .

ـ مسألة الشهادة .. غير ممكنة .. خاصة وأنك مريضة بالفعل ، وهذا يعنى تزويـ ...

قاطعتنى قائلة بغموض :

ـ لا .. لم أعنِ الشهادة .. إنه حل آخر .. حل فى يدك أنت .. أنت يا دكتور .

* * *

5 ـ مهمة صعبة ..

سألت السيدة (جميلة) باهتمام :

ـ ما الذى تعنيه ؟

قالت لى بكل بتلقائية :

ـ أن تعالجنى .

لم تكن السيدة (جميلة) حالة عادية أبدًا .. كانت مريضة .. والمطلوب منى هو علاجها ، وطبعًا لكى أعالجها يجب أن أعرف ما هى الأمراض التى تعانى منها .. وهناك شىء آخر .. يجب أن يتم علاجها فى مدة قصيرة محددة .. تبدأ هذه المدة من هذا اليوم ، وتنتهى يوم القضية .. هذا هو الحل الذى اقترحته .. يا له من حل عبقرى .

ويا لها من مهمة ..

إن مسألة اكتشاف المرض مسألة صعبة .. وخاصة عندما يتعلق الأمر بالأمراض النفسية .. لأننا لا نستخدم الأدوات كثيرًا فى مجالنا .

أما مسألة العلاج فهى الأصعب .. لأننا لا نستخدم الأدوية .. تقريبًا .

وهذه نقطة أخرى ..

أعتقد أنها مهمة صعبة ..

لذا عندما قررت مساعدة السيدة (جميلة) .. تعاملت مع الأمر كنوع من التحدى .. وأنا أعشق التحدى وصنع الإنجازات .

لقد قلت إنها مهمة صعبة لكنى لم أقل أنها مهمة مستحيلة .. قلت لها متحمسًا :

ـ طالما أنه لا يوجد حل آخر .. فلنبدأ ..

وهكذا أعلنت لها استعدادى التام لمساعدتها مهما استلزم الأمر .. فرحت جدًا بما قلته .. حتى خشيت أن تقذف بنفسها من النافذة من فرط سعادتها .

كان الأمر بالنسبة لى تحديًا .. وبالنسبة لها أملاً كبيرًا .. هكذا بسهولة .

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ..

أبدًا .

* * *

قلت للسيدة (جميلة) بعد أن وافقت أخيرًا على الاسترخاء على الشيزلونج :

ـ استرخى تمامًا .. الاسترخاء سيفيدك كثيرًا .. واخلعى هذه النظارة .

نفذت ما طلبته منها .. فقلت لها :

ـ خذى نفسًا عميقًا .. جيد .. أخرجيه الآن .

ـ هل تعتقد أن هذه الأشياء مفيدة ؟

لم أعلق .. فقط أحضرت النوتة والمسجل ، ثم وضعت شريطًا به ، وأدرت التسجيل ؛ ففوجئت بها تصيح قائلة :

ـ لا تستخدم المسجل .. من فضلك يا دكتور .

ـ ولكن ..

ـ أرجوك .

ـ كما تريدين .

أوقفت التسجيل ، وأخرجت الشريط لأؤكد لها الأمر ثم ..

ـ والآن .. أريد منك أن تخبرينى بمشاكلك النفسية كلها .. هذا سيوفر علىّ مشقة اكتشافها ، وبالتالى يوفر الكثير من الوقت ، ويسهل مسألة العلاج أيضًا .

ـ لا أعانى من أى مشاكل .

قلت لها غاضبًا :

ـ لا .. هذه البداية غير مبشرة .. إن كنت ترغبين حقًا فى العلاج لكى تحتفظى بأولادك فيجب أن تخبرينى بكل شىء .. صارحينى بكل ما تخشينه ، وبكل ما تفرحين به .. أخبرينى بجميع مخاوفك وجميع رغباتك .. أخبرينى بأحزانك وأفراحك .. أريد أن أعرف الجانبين .. الجانب المحزن والمفرح فى حياتك .. ربما نستطيع معالجة هذا بذاك .. لذا أطلب منك التحدث .. والاهتمام بالتفاصيل الصغيرة .. إنها تفيد دائمًا .

ـ أنا فعلاً لا أعلم ما هى مشاكلى النفسية .. أويمعنى أدق لا أعلم ما هى الأمراض النفسية التى أعانى منها .

بعد محاولات عديدة لحثها على التحدث قررت استخدام طريقة أخرى .. قلت لها :

ـ حسنًا .. طالما أن لسانك لا يريد النطق .. سأجعل يدك هى التى تنطق .

ـ ماذا ؟

أحضرت لها ورقة كبيرة وطلبت منها أن ترسم عليها ما تريد .. هذه طريقة لا بأس بها لمعرفة ما يجول فى ذهنها .. تركتها ترسم بحريتها دون مراقبة وانشغلت بشىء آخر .. لكن عندما

عدت إليها لم أجد رسمًا .. وجدت الورقة قد تحولت إلى مركب صغير بيد ماهرة .. وكانت السيدة (جميلة) تستمتع باللعب بها للغاية .. ومن عينيها تطل النظرات إياها فأدركت على الفور أنها لم تعد (جميلة) التى أعرفها .

* * *

ـ « من الذى صنع هذا المركب ؟ »

قالتها لى ، وهى تمسك بالمركب الورقى .. يبدو أنها عادت الآن إلى شخصيتها الأصلية .. نظرت إلى ساعتى .. عرفت أن الأمر استغرق ربع ساعة تقريبًا .

قلت بتلقائية :

ـ أنت .. والحمد لله أنك عُدت .

ـ عُدت ! .. عُدت من أين ؟

ـ ..... .

ـ من الذى أسقط هذا المقعد ؟

ـ أنتِ ؟

ـ أنا ؟! لماذا ؟

كانت مندهشة .. لا تتذكر أى شىء مما حدث فى الدقائق السابقة .. سألتنى :

ـ ألم أكن مسترخية على الشيزلونج ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ هل كنت أنوى الخروج ؟

ثم اتجهت إلى الشيزلونج ، وتأملت ما أصابه :

ـ من المجرم الذى مزق الشيزلونج هكذا ؟ وأخرج الـ ...

ـ أنتِ .

ـ أنا ؟! كيف ؟

ثم تأملت قدميها .. هل من الممكن أن تسألنى عن ..

ـ أين فردة الحذاء ؟

ـ لقد سألتِنى عنها من قبل ، وأجبتك .

ـ لا .. لم يحدث .. وأنت لم تجب سؤالى بعد .

حكيت لها كل ما فعلته خلال الجلسة .. محاولاً تذكيرها .. لكن .. للأسف لم تتذكر ، ولم تصدق أن هذا حدث منها .. قالت بعفوية :

ـ أنت كاذب .

ـ أنا لم أكذب .

ـ أنا لا أصدق حرفًا مما قلته .. أنا لم أفعل أيًّا من هذا .

قلت لها بهدوء :

ـ هذا هو ما حدث بالفعل ، ولم أكذب فى حرفًا واحدًا وإن كنت لا تثقين فيما أقوله ، فيمكنك الذهاب إلى طبيب آخر يكون مصدر ثقة بالنسبة لك .

قالت لى غاضبة :

ـ نعم .. سأذهب إلى طبيب آخر .. طبيب يفهم فى هذه الأمور .. طبيب لا يكذب .

ثم حملت حقيبتها وهمت بالانصراف لكن ..

ـ أرجوك يا دكتور .. أرجوك عالجنى .

فجأة .. حدث هذا التحول .. جثت على ركبتيها قائلة :

ـ من فضلك يا دكتور .. أنت الوحيد الذى يمكنه علاجى .

ساعدتها على النهوض ، وقلت :

ـ الثقة فى الطبيب أولى خطوات العلاج النفسى .. يجب أن تفهمى ذلك .

ـ نعم . وأنا أثق فيك جدًا يا د. (رمزى) .

ـ بالضبط .. هذا هو الـ ...

ماذا ؟ هل قالت د. (رمزى) ؟ أم أننى ...

ـ فيمَ تفكر يا دكتور ؟

ـ يبدو أن لسانك أخطأ فى نطق اسمى .

ـ لا .. لقد نطقته جيدًا .. وأنا لم آت لك من أجل علاج لسانى .. لقد جئتك من أجل مشكلة الطفل .. فأرجوك .. دعنا نركز على هذه المشكلة فقط .

ـ طفل ! تقصدين الأطفال .

ـ لا .. أنا حامل فى طفل واحد .

ـ هل أنت حامل ؟

ـ أليس هذا واضحًا ؟

و تحسست بطنها فى نشوة عجيبة فقلت لها مترددًا :

ـ من أنا ؟

ـ ما هذا السؤال يا دكتور ؟

ـ من فضلك .. أجيبى عن السؤال .

ابتسمت وقالت باقتضاب :

ـ د. (رمزى) .

ضحكت .. لقد تأكدت ظنونى .. كم استغرق الأمر هذه المرة ؟

سألتها بفضول :

ـ ومن أنتِ ؟

ـ هل نسيتنى يا دكتور ؟

ـ من فضلك .. أجيبى .

ـ حسنًا .. اسمى (رغدة) .. لماذا اندهشت هكذا يا دكتور ؟

* * *

6ـ (جميلة) .. وأخواتها ..

« من الذى مزق الشيزلونج هكذا ؟ »

سألتنى السيدة (جميلة) هذا السؤال مرة أخرى .. وأقول السيدة (جميلة) لأن السيدة (رغدة) قد غادرت الجلسة .. واستغرق الأمر هذه المرة عشر دقائق .

أجبتها بعفوية :

ـ أنتِ .

لقد نست تمامًا أنها مزقته ، ونست أنها سألتنى بعدها ونست إجابتى أيضًا .. من الواضح أنها تنسى الأحداث القريبة دائمًا وبسرعة .

وعادت تسألنى من جديد (من الذى أسقط هذا المقعد ؟ من الذى أسقط الكتب ؟ من الذى ... إلخ) وكل الأسئلة التى إجابتها بـ (أنتِ) .

وكالعادة لم تصدق أنها فعلت كل هذا ، ولم تصدق أنها سألتنى نفس الأسئلة من قبل .

لقد صار الأمر مملاً ..

مملاً جدًّا .

* * *

« هل أنتِ مستعدة لاستكمال الجلسة الآن ؟ »

سألت السيدة (جميلة) هذا السؤال ، فأجابت سؤالى بسؤال :

ـ أى جلسة ؟ ومن أنت أصلاً ؟

كانت تنظر لى ، وكأنها ترانى لأول مرة .. يبدو أنها لم تعد (جميلة) .. قلت لها :

ـ ألا تتذكرينني ؟

قالت مترددة وقد بدا عليها الخجل :

ـ هل أعرفك ؟ هل تقابلنا من قبل ؟.. هل أنت معنا فى الفريق ؟

ـ أى فريق ؟!

كنت مندهشًا جدًّا .. لا أصدق أن هذه هى السيدة المتزنة الهادئة .. الأم المعذبة التى جاءت إلى عيادتى اليوم ؛ لتطلب منى شهادة تثبت أنها بكامل قواها العقلية ..

الآن هى لا تعلم عنى شيئًا .

سألتها أسئلة عديدة ، وحاولت تنشيط ذاكرتها الضعيفة جدًا ، لكن باءت كل محاولاتى بالفشل .

لقد نست كل شىء عنى وعنها .. إنها الآن شخصية أخرى فى عالم آخر .. عالم من خيالها .

لا أعلم كيف ستعود إلى بيتها لو ظلت على هذه الحال .. لا أعلم كيف وصلت إلى عيادتى من الأساس .

بالتأكيد فعلت ذلك عندما كانت فى حالتها الطبيعية .. عندما كانت (جميلة) .

ترى متى ستعود ؟ نظرت إلى ساعتى .. وانتظرت ..

* * *

ـ « أين أنا ؟ ومن أنت ؟ وكيف جئت هنا ؟ »

سألتنى هذه الأسئلة ، وفى عينيها نظرة خوف ، فقلت لها بهدوء :

ـ اطمئنى .. أريد أن أعرف فقط ما هو اسمك .

لم ترد .. كانت خائفة مذعورة .. تنظر لى بعينين مرتعبتين .. يبدو أنها تتخيلنى وحشًا مخيفًا يريد الانقضاض عليها .. قالت خائفة :

ـ أخرجنى من هنا وسيدفع لك أبى ما تريد .. أبى ثرى جدًا .

هل تعتقد نفسها رهينة ؟ هل تعتقد أنى أحد مختطفيها وسوف أطلب فدية ؟

لا شك أن لديها خيالاً خصبًا .. قلت لها بهدوء حتى تشعر بالأمان :

ـ أنا لا أريد إيذاءك .. يمكنك الخروج فى أى لحظة .

ـ ما الذى تريده منى ؟

ـ لا أريد شيئًا .. فقط أخبرينى باسمك .

ضاع كل الخوف والذعر ، وعادت الابتسامة إلى وجهها فجأة .. وهى تنظر لى بدهشة حقيقية .. وتقول بمرح :

ـ اسمى (جميلة الصقرى) .. هل نسيت اسمى يا دكتور ؟

قلت لها راسمًا ابتسامة عريضة حتى خشيت أن تصل إلى أذنى :

ـ لا .. لم أنس اسمك .. هيا لنستكمل الجلسة .

ـ أنا مستعدة .. ولكن .. كيف أقف هنا ؟.. ألم أكن مسترخية على الشيزلونج ؟.. ومن الذى أسقط هذا المقعد ؟.. ومن الذى مزق الشيزلونج بهذه الطريقة الوحشية ؟

ثم نظرت إلى قدميها وسألتنى للمرة السابعة والثلاثين :

ـ أين حذائى ؟

* * *

سألتنى السيدة (جميلة) والحزن يكسو صوتها :

ـ لماذا لا تتكلم يا دكتور ؟ هل حالتى سيئة إلى هذه الدرجة ؟

قلت لها ، وأنا متأكد تمامًا من أننى أتحدث إلى (جميلة) الآن .. لقد تركت شخصية (إيناس) وودعت (زينب) ، وقد رحلت (سناء) ، وخرجت (رغدة) منذ زمن ، و(صافى) لم تظهر مرة أخرى و(علا) و(هيام) أيضًا :

ـ لكل داء دواء .. وكل شىء يمكن علاجه .

أشعر بأنها لم تسمعنى .. قالت ، والألم يمزق كلماتها :

ـ هل أنا مجنونة ؟ هل سيأخذون أولادى منى ؟ هل سأحرم منهم إلى الأبد ؟

ـ اهدئى .. اهدئى .. لا أريد هذه الانفعالات .

واتجهت إليها لأهدئها .. سوف تصاب بانهيار عصبى على أقل تقدير .. ربتّ على كتفها ؛ ففوجئت بها تنسى حزنها ، وتقول بانزعاج :

ـ لماذا تضع يدك علىّ ؟ هل أنت زوجى ؟ خطيبى ؟ حبيبى ؟

ـ ماذا ؟

صاحت غاضبة :

ـ ما الذى تريده منى بالضبط ؟ أنا امرأة شريفة .

ـ ..... !

ـ من أنت ؟ ولماذا أحضرتنى إلى هنا ؟ هل تعتقد أننى سوف ..

قاطعتها قائلاً بلهجة صارمة :

ـ كفى .. لا أريد سماع كلمة أخرى .. يمكنكِ الانصراف .

وأشرت بيدى إلى الباب .. لكنى فوجئت بها تتمايل ، وتهمس قائلة :

ـ هل تريدنى أن أنصرف ؟

ـ نعم .

ابتسمت لى ابتسامة خبيثة ، وغمزت بعينها قائلة :

ـ دون أن نتعارف ؟ أنا (مونيا) .. وأنت ؟

تمالكت نفسى .. لا أريد أن أنفجر من الغضب أمامها .. عدت إلى مكتبى بهدوء ، فعادت تسألنى :

ـ ما هو اسمك ؟ أريد أن أعرفه .. وهل هذه شقتك أم شقة صديقك ؟

قلت لها محاولاً إنهاء هذا الحوار الثقيل وهذه الجلسة الطويلة :

ـ أنا د. (ياسين العوضى) ، وهذه هى عيادتى .

وجدتها تنظر لى بجدية ، وتقول مندهشة :

ـ أنا أعلم ذلك جيدًا يا دكتور .. لماذا تخبرنى به ؟

يبدو أنها قد عادت إلى ...

ـ (جميلة) !

ـ نعم يا دكتور .

ثم نظرت إلى قدميها ، وسألت نفس السؤال للمرة التاسعة والأربعين بعد المائة الثالثة بعد الألف الرابع :

ـ أين حذائى ؟

لم أجبها .. فقط أشرت إليها .. ففهمت .. أظهرت الدهشة كالعادة ، ثم سألتنى :

ـ هل حالتى سيئة يا دكتور ؟

ـ ..... .

ـ دكتور .. ما بك ؟ لماذا لا ترد علىَّ ؟

* * *

7 قضية خطيرة ..

سألتُ السيدة (جميلة) ، وأنا لا أزال أمتلك حفنة من الأمل :

ـ ألا تتذكرين أى شىء عن الكتب ؟ عن المركب ؟ عن التفاح ؟ عن فردة الحذاء ؟ عن الـ ..؟

ـ لا يا دكتور .. لا أتذكر أى شىء .

ـ هذه البداية غير مبشرة .

ـ هل حالتى سيئة ؟.. هل ستعالجنى يا دكتور ؟.. هل سأعود طبيعية ؟

فكرت قليلاً ثم قلت :

ـ حسنًا .. سأبدأ بمهمة صغرى .. لو أننى استطعت تذكيرك بما حدث فى الدقائق السابقة فسيشجعنى هذا على البدء فى علاجك إن شاء الله .. أما لو أننى فشلت فى هذه المهمة العادية فهذا يعنى ..

لم أكمل ، ولكنها استنتجت الجزء المتبقى .. قالت :

ـ سوف أتذكر بإذن الله .. فى الواقع أنا لا أصدق أننى مَن فعل كل هذا ، ولكن طالما أنك تقول ذلك فهذا يعنى أننى فعلت ..

أنا أثق فيما تقوله .. ولو أنك قلت أننى حاولت الانتحار فسوف أصدقك .

ـ أنتِ حاولت الانتحار بالفعل .

نظرت لى مندهشة .. ثم طردت اندهاشها بسرعة ، وقالت باستسلام :

ـ حسنًا .. أنا أصدقك .

هذه الثقة ضرورية لعلاجها .. ولكن للأسف لا يتم العلاج بالثقة فقط .

* * *

وبدأت المهمة الصغرى ..

إذا نجحت فيها سيكون حافزًا قويًا لى لأستكمل معها جلسات العلاج .. علاجها الذى لابد أن ينتهى قبل يوم القضية .. لكن كيف أنجح فى ذلك بعد هذا الكم الهائل من الأعراض الذى رأيته خلال هذه الساعات ؟

لقد رأيت حتى الآن عشر حالات مجتمعة ، وفى هذا الوقت العسير .. ماذا لو جلست معها أكثر؟ ربما اكتشفت أكثر .. فيبدو

أن لديها مخزونًا كبيرًا من المخاوف والوساوس والاضطرابات والصراعات والعقد النفسية .

لقد اكتشفت جنونها خلال هذه المدة اليسيرة .. ساعتين .. تقريبًا .. فماذا عن زوجها ؟

بالتأكيد يعرف منذ أول لقاء بينهما .. أعنى قبل الخطوبة طبعًا .. ولا أعتقد أنه أصم وأعمى .. ربما كان أبكم بصدد مصارحتها بالحقيقة .. لا يريد جرح مشاعرها .. لكنه بالتأكيد يعرف وقد وافق على الزواج وهو يعرف .. ولن يكون أول شخص يتزوج من مجنونة ، وهو يعلم بأمر جنونها .. ماذا لو أنه لم يكن يعلم ؟ أعنى أنه عرف الحقيقة بعد الزواج .. هل هذا معقول ؟! ربما ..

أنا نفسى لم ألاحظ عليها شيئًا خلال الجزء الأول من الجلسة .. أنا الطبيب النفسى المحنك .. فما بالك بالإنسان العادى ؟ هل يمكن أن يُخدع بسهولة فى خطيبته ؟ ربما .. وإن حدث هذا فإنه فى ورطة كبيرة .. إن الزواج من مجنونة ليس أمرًا مبهجًا .. خاصة وإن كان جنونها خطيرًا .. لن يهدأ له بال .. سيخاف على حياته .. ما الذى يمكن أن تفعله أثناء نومه ؟ ما الذى يمكن أن تفعله أثناء غيابه ؟ لا داعى للتخيل فالصورة مقبضة .

إنها قضية خطيرة ..

والسؤال هو : كيف يتأكد الرجل من أن خطيبته ليست مجنونة ؟ والعكس أيضًا .. كيف تتأكد الفتاة ؟ هل تطلب من خطيبها شهادة تثبت أنه بكامل قواه العقلية ؟ شهادة كالتى طلبتها منى السيدة (جميلة) اليوم ..

وماذا عن الرجل ؟ هل يسأل الرجل أهل خطيبته عنها ؟ يقول مثلاً (بنتكم مجنونة ولا لأ ؟) .. طبعًا سؤال محرج ، وربما يرونها إهانة وينتهى الأمر به فى المستشفى (قسم الكسور) أوينتهى بالمأذون .. أو .. تكون عائلتها متحضرة ، وتقدر موقفه ، وتجيب سؤاله بسهولة شديدة .. لكن .. (من يشهد للعروسة ؟)

يا إلهى .. ماذا لو ..؟ هل يمكن أن ..؟ مستحيل .. فلنفترض .. لا .. لماذا لا ؟ ربما .. هل من الممكن أن أكون فى هذه الورطة الآن ؟ هل (نادين) ... ؟

مستحيل .. لكن من يدرى ؟ وهنا يأتى السؤال : كيف أعرف أنها ...؟ هل أسألها ؟

لا .. لا يمكن .. هذا يعنى أنى أشك فى عقلها .. وسترى أنى جننت ؛ لأسألها هذا السؤال .. هل أسأل والدتها ؟ لا أعرف كيف سيكون رد فعلها ، لكن ..

لِمَ كُلّ هذا ؟ أنـا لم ألاحظ أى شىء غير طبيعى فى تصرفاتها ، وأنا طبيب نفسى ، وهذا ملعبى .. بالتأكيد كنت سأعرف .. أنا لم أقابلها لثوان .. لقد جلست معها ساعات .. ولو افترضنا أنها كذلك .. لِمَ القلق ؟ سوف أعالجها بإذن الله .

قد يبدو الأمر غريبًا ، ولكنى سأكون مضطرًا وقتها .. قد أحجزها فى المستشفى لحين شفائها .. قد اضطر أيضًا إلى الـ ... ما هذا ؟ ما كل هذه التخيلات ؟ على أى أساس قد بنيتها ؟

خطيبتى هى الأجدر بالتفكير فى هذه الأمور .. وربما تشك فىَّ بالفعل .. ولقد صارحتنى بهذا الأمر أكثر من مرة .. صارحتنى بأنها لاحظت قيامى بتصرفات غريبة فى بعض الأيام حتى إنها توقعت أنى سأفقد عقلى يومًا .. بسبب الحالات الكثيرة التى أراها وأعالجها .. انطلاقًا من قاعدة (من عاشر القوم ...)

* * *

ـ « لقد تذكرت يا دكتور . »

قالتها أخيرًا بعد عشرات المحاولات الفاشلة ، ليطمئن قلبى ، ويهدأ بالى ؛ ولكى أشعر أن هناك أملاً فى علاجها .. لكى أستعد منذ هذه اللحظة لبدء مشوار العلاج معها .. المشوار الذى لا أعلم متى سينتهى ؟ وهل سينتهى أم لا ؟

ـ لقد تذكرت كل شيء .. ذاكرتي صافية تمامًا الآن .. أرى ما حدث بوضوح .. أتذكره تمامًا ، وكأنه حدث منذ ساعة .

ـ هو بالفعل حدث منذ ساعة .

ذَكَرَتْ لي ما حدث تمامًا .. وبالتفصيل الممل .. وكنت سعيدًا للغاية .. فهذا يعني أني نجحت ـ بفضل الله ـ في مهمتي الأولى .. قالت لي في النهاية :

ـ لقد ساعدتني كثيرًا يا دكتور .

الحمد لله .. أعتقد أنها هي التي ساعدتني .. كنت سأصاب بإحباط شديد إذا فشلت في هذه المهمة ، ولكن الآن .. لقد تحمست كثيرًا .

قالت لي بتردد ، وهي تضع نظارتها السوداء على عينيها :

ـ شكرًا يا دكتور .. ولكن .. هناك مسألة تحيرني .

ـ ألا وهي ...

ـ لماذا جئت هنا اليوم ؟

قلت متوجسًا خيفة ، وساورني القلق بمجرد سماعي سؤالها :

ـ هل تمزحين ؟ هل نسيت أنك جئت من أجل الشهادة ؟

سألتنى متعجبة :

ـ أى شهادة ؟

قلت بقلق :

ـ كيف تنسين الشهادة ؟ الشهادة التى طلبتها من أجل الاحتفاظ بأطفالك .

سألتنى ببراءة ، وفى عينيها نظرات حيرة :

ـ لقد تذكرت كل شىء بالفعل ، لكن ما هو موضوع الشهادة ، وعن أى أطفال تتحدث ؟

ـ .....!

* * *

8 ـ خطيبتى ..

فى الواقع ..

وبكل صدق .. أرى أن السيدة (جميلة) مجنونة جدًّا .

حتى إننى فكرت فى الاتصال بالمستشفى مرات عديدة .. إن جنونها واضح جدًّا .. فهى ليست مجنونة عادية .. لم تكن كذلك أبدًا .

بالتأكيد زوجها يعرف .. وإلا سأعتبره غبيًا أو مجنونًا ، أو لا يدخل البيت أبدًا .

طبعًا سأكتفى بهذا القدر من الجلسة الأولى ؛ لأن البقية سوف تلتهم ما تبقى من صفحات الكتيب .. وأنا لن أقضى هذا العدد فى جلسة واحدة ؛ ليكون العدد القادم (حالة الجلسة الثانية) .. لن يحدث هذا أبدًا .

فى نهاية الجلسة .. قلت للسيدة (جميلة) راسمًا ـ بصعوبة ـ ابتسامة أمل :

ـ لا .. عادى .. سوف تحتاجين إلى بضع جلسات .. ومن يدرى ؟!

ـ هل هناك أمل ؟

ـ الله قادر على كل شيء .. فقط أريد منك أن تأتى إلى العيادة كل يوم .

صاحت منزعجة :

ـ كل يوم ؟

ـ تقريبًا .

ـ إلى هذه الدرجة حالتى سيئة ؟

ـ المسألة لا تتعلق بمدى سوء حالتك .. فقط .. إنها تتعلق بمسألة الوقت أيضًا .. موعد القضية اقترب .. وأنا حتى الآن لم أشخص (حالاتك) .. أقصد حالتك جيدًا .. لذا فأنت تحتاجين إلى جلسات مكثفة .

ـ جلسات مكثفة !

ـ ليس بيحدى شيء آخر أستطيع تقديمه لك .. التزمى بالمواعيد .. وسوف أغير جدولى ـ بإذن الله ـ ليتناسب مع هذا الوضع الجديد .. كل هذا من أجل عودة أطفالك إلى أحضانك .. فقط أطلب منك ـ حتى لا يضيع مجهودى هباء ـ أن تنسى أزمتك مع زوجك .. القضية .. حق الحضانة .. وأى مشاكل أخرى .. لا تفكرى فيها إطلاقًا .. لا تعرضى نفسك لأى مواقف محزنة

أوكتيبة .. اهتمى برعاية أطفالك .. اقضى كل وقتك معهم .. لو دخلت إلى عالمهم الصغير الجميل .. تأكدى أنك سوف تنسين كل همومك .

ـ أعلم هذا جيدًا يا دكتور .. فأنا أُم .

ـ حسنًا .. وأريد منك شيئًا آخر .

ـ ما هو ؟

ـ سجلى كل ما تمرين به .. كل ما تشعرين به .. اكتبى كل ما يجول بخاطرك .. وارسمى أيضًا .. أريدك أن تأتى فى المرة القادمة معك كشكول وكراس رسم .. اتفقنا ؟

ـ سهلة .. ولكن هل تعتقد أنى سأعود طبيعية ؟ هل سأحتفظ بأطفالى ؟ هل ..

قاطعتها لأنى وجدتها تستعد لتفجير بركان دموعها كعادتها :

ـ لا .. لا أريد أن يتسلل اليأس إليك .. لا أريد هذا أبدًا .. غدًا سوف تزول هذه الغمة .

وسوف تربحين قضيتك أمام زوجك .

قلت هذا مشجعًا إياها .. ولكن الشيطان بداخلى كان يقول لى : أتضحك عليها أم تضحك على نفسك ؟ لن تستطيع علاجها .. سواء فى هذه المدة اليسيرة أو فى مدة أطول .. فأقول له مترددا : لا يوجد مستحيل .

وهكذا .. انتهت هذه الجلسة الطويلة دون إضافة مزيد من الأمراض إلى قائمة أمراضها النفسية الطويلة .

قال لى الممرض (وائل) بضيق بعد خروجها مباشرة :

ـ لقد طالت هذه الجلسة جدًّا .

ـ نعم .. أعتقد هذا .

تأمل الحجرة ثم قال :

ـ لقد سمعت تحطم أشياء .. وسقوط أشياء .. أنا لا أجد أى أثر لذلك .

ـ لقد صممتْ على تنظيف المكان بنفسها .

ـ ماذا ؟

ـ نعم .. لديها هوس النظافة .. إلى جانب هوس التحطيم أيضًا .

ظل يدير الأمر فى رأسه ثم سأل :

ـ حسنًا وأين وضعت الـ ... ؟

لم أنتظر بقية السؤال فأجبته :

ـ لديها أيضًا هوس الاحتفاظ بالأشياء المكسورة .

ـ أتعنى أن الحقيبة التى كانت تحملها وهى خارجة .. يوجد بها كل الـ ...

رأيته يهز رأسه وكأنه ينفض هذه الأمور الغريبة عن رأسه السليم ثم سألنى :

ـ هل أدخل الحالة التالية ؟

ـ نعم .. لا .. نـ .. نعم .. لـ .. لا .

ـ نعم أم لا ؟

ـ حسنًا .. أدخلها بعد عشر دقائق بالضبط .

كاد أن يسألنى لماذا .. ولكنه لم يفعلها .. فقط استدار وخرج من الغرفة .

أما أنا فاتجهت إلى الشيزلونج ؛ لأستريح ..

وأسترخى .. أسترخى تمامًا ..

إن الاسترخاء يساعد على الـ ...

* * *

دخلت الحالة التالية ..

الاسم : سعيد كامل .

السن : خمسة وعشرون عامًا .

قلت له وأنا أصافحه :

ـ تفضل .. الشيزلونج أفضل .

ـ لا .. أنا لست مريضًا .

ما الأمر ؟ هل هو قريب السيدة (جميلة) ؟.. قلت له :

ـ لا تقل لى أنك تكره الأطباء النفسيين وأنك لا تعانى من أى مشاكل ، ولا تحتاج إلى جلسات ولا تـ ...

قاطعنى قائلاً :

ـ أنا فعلاً لست مريضًا ، ولا أحتاج إلى جلسات ، ولكنى مقتنع بالطب النفسى ؛ ولهذا جئت لك .

ـ مزيدًا من التوضيح .

ـ إنها خطيبتى .. (ريهام) .. أريدك أن تراها ، وتخبرنى برأيك فيها .. باعتبارك طبيبًا نفسيًا لأنى لاحظت قيامها بأشياء غير مألوفة .. سوف أخبرك بها فيما بعد .. الوقت لا يسمح الآن .. إنها تجلس

بالخارج .. أخبرتها أنك صديقى وهكذا جاءت معى لزيارتك .. أريدك أن تتحدث معها .. تستمع لما تقوله .. تراقب تصرفاتها .. وهكذا .

ـ باختصار .. تريدنى أن أعرف إن كانت مجنونة أم لا ؟

ـ بالضبط .. لقد فهمتنى يا دكتور .. المشكلة أننى أحبها ، ولكنى أخشى أن تكون مجنونة ، وأنا لا أستطيع تحمل فكرة الارتباط بمجنونة .. لذا أريد أن أعرف قبل أن أخطو أى خطوة .

ثم خرج ليحضر خطيبته ..

ولكن هذه .. حالة أخرى .

حالة خاصة .

* * *

خطيبتى (نادين) ..

لن أصفها لكم ؛ فقد أصبحتم تعرفونها جيدًا .. لن أقول إنها أجمل ملاك وأرق ملاك ولن أقول إنها تجسيد للبراءة والنقاء والصفاء والوفاء والعطاء ... إلخ .

لن أقول أيًّا من هذا .. لن أقول .. أعدكم .

التقينا فى الثانية عشرة ظهرًا .. فى ذلك الكازينو الراقى المطل على النيل .. حيث اعتدنا أن نلتقى .

كنت أجلس معها ، وصورة السيدة (جميلة) لا تفارق ذهنى .. حالتها تشغل تفكيرى كله .. ربما لأن جلستها كانت فى اليوم السابق .. ربما لأنها كانت أطول جلسة خلال هذه الأيام .. ربما لأن حالتها معقدة جدًا يصعب علاجها .. ربما لأنى وعدتها بعلاجها ، وأنا أشك الآن فى مقدرتى على ذلك .. ربما .. وربما .

و ربما لأن السؤال مازال يطرح نفسه على عقلى .. سؤال : هل يعرف زوجها بحالتها ؟ لو أنه يعرف فتلك مصيبة .. لو أنه لا يعرف فالمصيبة أعظم .. كيف يمكن أن يعيش معها كل هذه المدة ، ولا يعرف شيئًا عن حالتها ؟ وهنا يأتى السؤال الأهم والأخطر : كيف يعرف الشاب أن خطيبته سليمة العقل .. كيف ؟ هل يفعل مثلما فعل (سعيد) بالأمس ؟ هل يحضر خطيبته إلى عيادة طبيب نفسى ؟

حسنًا .. أنا الطبيب النفسى و(نادين) خطيبتى .. هل يمكننى أن أقول رأى فيها ؟

أجلس أمامها الآن .. أراقب تصرفاتها .. أتأمل وجهها ..

هل يمكن لصاحبة هذا الوجه الجميل الطاهر البرىء أن تكون (....) ؟

لا أعتقد أن هناك علاقة بين الجمال والجنون .. سوى النرجسية .. هناك أيضًا جنون العظمة والشعور بالاضطهاد .. حين ترى الفتاة أنها أجمل من الآخرين .. لذا تصبح مهمة الآخرين من وجهة نظرها هى الحقد عليها .. دعك من اللاتى يرين أن الجمال نقمة .. وأنه يسلط عليهن أرذل المخلوقات وأنهن هدف دائم للوحوش الضارية بالخارج .. وقتها قد يرغبن فى التخلص من هذه الهبة بعملية تجميل عكسية .. أما الجمال بالنسبة للفتاة الطبيعية فهو يزيد من ثقتها بنفسها .. وتجد الجالس أمامها متحفزًا للاستماع إلى وجهة نظرها .. وربما تأييدها أيضًا .

سؤال : هل كنت سأحب خطيبتى لو لم تكن جميلة ؟

طبعًا .. كنت سأحبها .. فأنا لا أحبها من أجل جمالها فقط .. أنا أحبها لأسباب عديدة .. تفاصيل كثيرة لن يتسع المجال لذكرها .. لن تكفى مجلدات ضخمة لذلك .

لقد سألتنى أميرتى يومًا لماذا أحببتها ؟

لم أجبها يومها .. لأن الإجابة طويلة .. قد ينتهى اليوم ، ولا تنتهى الإجابة .. لكنى لم أسألها أبدًا : لماذا أحببتِنى ؟ لم أفكر يومًا فى أن أسألها هذا السؤال .

يكفينى أنها اعترفت لى بحبها .. لا أرغب فى معرفة السبب .

قالت أميرتى ، وقد لاحظت شرودى :

ـ ما سبب شرودك هذه المرة ؟

ـ لا تشغلى بالك .

ـ الحالة : ذكر أم أنثى ؟

ـ لماذا تسألين ؟

ـ على الأقل .. أريد أن أعرف نوع الشخص الذى سيقتلنى هذه المرة .

أميرتى الجميلة .. تسخر من كونها تعرضت للقتل على يد مرضاى أكثر من مرة .

ضحكتُ قائلاً :

ـ أعدك أن ما حدث لن يتكرر .. لن أكتب اسمك فى أى مذكرات أو أوراق عندى ولن أخبر أى مريض باسمك .

تنفست الصعداء .. لا أعلم لماذا تملكتنى الرغبة فى أن أقول :

ـ فقط سأخبرهم بعنوان منزلك ورقم هاتفك .

كادت أن تنفجر غيظًا .. ولكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة وقالت :

ـ (ياسين) .

ـ نعم .. أميرتى .

ـ أرجوك .. أبعدنى تمامًا عن حياتك المهنية .. يكفينى ما رأيته من مرضاك حتى الآن .

قلت لها بخبث :

ـ ألا تريدين معرفة الحالة التى أعالجها هذه الأيام ، والتى تسيطر على كل تفكيرى ؟

ـ لا .. لا أريد أن أعرف .

ـ ألا تريدين معرفة إن كانت ذكرًا أم أنثى ؟

قالت ساخرة :

ـ عندما تأتى هذه الحالة لقتلى .. بالتأكيد سأعرف .

ضحكت قائلاً :

ـ لماذا هذه النظرة التشاؤمية ؟ ليس جميع مرضاى يعشقون القتل .

ـ ماذا ؟

ـ نصفهم على الأكثر .

صاحت غاضبة ، والغضب زادها جمالاً :

ـ (ياسين) .

قلت محاولاً تهدئتها :

ـ أنا أمزح معك .

أنت تمزح ، وأنا فى غاية القلق.. أتوقع فى أى لحظة أن يهجم علىّ أحد مرضاك .. عندما أدخل المطبخ أتوقع أن أجد مجنونًا ينتظرنى خلف الباب .. لا أستطيع النوم قبل أن أتأكد من أن أحدًا لا يختبىء تحت السرير .. عندما يدق جرس الباب أخشى أن ..

قلت لها بقلق :

ـ (نادين) .. هذه المخاوف سيئة جدًا .. يجب أن تشعرى بالأمان والطمأنينة ، وتأكدى من أنى سأكون بجوارك دائمًا .. كما كنت من قبل .

ـ نعم .. كنت بالفعل بجوارى فى المرات السابقة .. ولكن .. كيف أضمن وجودك فى المرات القادمة ؟

احتضنت يدها الرقيقة بين يدى ، وقلت :

ـ لن تكون هناك مرات قادمة .. أعدك .

هذه المخاوف التى ذكرتها تقلقنى .. فلو زادت عن الحد قد تدفعها نحو هاوية الجنون .. وسأكون السبب .. ومن يدرى ؟ ربما هى الآن ...؟ هل ...؟

هنا طرح السؤال نفسه من جديد ، وسيطر على تفكيرى كله .. فوجدت نفسى أسألها لا شعوريًا :

ـ هل أنت مجنونة ؟

* * *

9 ـ خواطر مريبة ..

نظرت أميرتى لى ، وعلى وجهها علامات الذهول والدهشة والتعجب والحيرة ..

يا إلهى .. ما الذى قلتهُ ؟ كيف خرج هذا السؤال ؟

كيف نطقته ؟

ولكنى أنقذت نفسى بسرعة رهيبة ، واستدركت قائلاً :

ـ ... بى ؟ هل أنت مجنونة بى ؟

نظرت لى بحنان ، وقالت بكل رومانسية :

ـ وأى جنون !

* * *

فى الجلسة الثانية للسيدة (جميلة) .. وكانت بعد الجلسة الأولى بيومين .

جاءت بكامل زينتها كالعادة ، ونفس النظارة السوداء تغطى عينيها .. قالت مبتسمة :

ـ كيف حالك يا دكتور ؟

ـ الحمد لله .. كيف حالك أنت ؟

ـ بخير .. ها هو الكشكول وكراس الرسم .

سألتها متعجبًا :

ـ هل نحن فى مدرسة ؟!

ـ أنت الذى طلبت هذا .. لقد طلبت منى أن أكتب كل شىء منذ الـ ...

ـ آه .. تذكرت .. أرينى .

قالت ساخرة :

ـ هل ستقوم بتصحيحهما الآن وإعطائى الدرجة ؟

ضحكت ، ثم تصفحت ما كتبته ..

* * *

الساعة التاسعة صباحًا ..

دقت جارتى (هدى) جرس الباب .. (هدى) جارتى لديها ثلاثة أولاد .. الأول اسمه (بسام) وعنده تسع سنوات .. يحب لعب الـ ...

* * *

ـ ما هذا ؟ ما دخل جارتك (هدى) فى الموضوع ؟ هل طلبت منك كتابة موضوع تعبير عن جيرانك ؟

ـ ألم تطلب منى أن أكتب كل ما أَمُرُّ به ؟

ـ نعم .. وهذا يعنى أن تكتبى أفكارك .. مشاعركِ .. مخاوفكِ .. أحلامكِ ..

ـ فى الصفحة الثالثة .

سألتها متعجبًا :

ـ ما الذى سأجده فى الصفحة الثالثة ؟

ـ مشاعرى .

قلبت الورقة لأصل للصفحة الثالثة ..

* * *

أشعر أن جارتى (هدى) لا تطيق جارتى (سوسن) .. (سوسن) فتاة جميلة .. من أصل طيب .. جاءت إلى الـ ...

* * *

ـ دخلنا فى موضوع (سوسن) .. يبدو أنكِ كتبتِ بحثًا عن سكان العمارة .. وربما تريدين كتابة رواية .

ـ لِمَ هذا الغضب يا دكتور ؟

ـ لست غاضبًا .. وأشكرك على أنكِ نفذت التعليمات وقمتِ بما طلبته ، ولكن .. ليس هذا هو ما طلبته .

ـ ما الذى تعنيه ؟

ـ كنت أريدك أن تكتبى عن ..

ـ فى الصفحة العاشرة .

ـ أنا لم أكمل جملتى .

ـ ولكنى فهمت .

ـ ما الذى سأجده فى الصفحة العاشرة ؟

ـ اقرأ ، وستعرف .

وهكذا .. ذهبت إلى الصفحة العاشرة .

* * *

لم أسترح لجارتى (نسرين) ..

* * *

ـ جارتك (نسرين) ! ما الجديد ؟ تركنا (هدى) و(سوسن) لنتحدث عن (نسرين) .

قالت لى بنظرة جادة :

ـ أكمل القراءة يا دكتور .. وستفهم ما أعنيه ، وستجد ما تريده .

ففتحت الكشكول مرة أخرى وأكملت القراءة ، وأنا لا أصدق حرفًا مما قالته ، ولكنها ..

كانت محقة ..

* * *

لم أسترح لجارتى (نسرين) .. لم أسترح لها أبدًا .. ولا أعلم السبب .. لقد كرهتها بمجرد أن رأيتها .. ربما لأنها شقراء .. وأنا لا أحب الشقراوات .. لا أحبهم أبدًا .. ولا أعلم السبب .. رأيت شقراء فى طفولتى .. أتذكرها جيدًا .. كانت فى بلدتنا .. نصحتنى أمى بالابتعاد عنها .. ألا أذهب إليها .. ماذا كان اسمها ؟ (سونيا) .. نعم ..

هذا كان اسمها .. كانوا يقولون أنها تعمل كـ ...

* * *

ـ بالضبط .. هذا هو ما أريده .. يبدو أنك فهمت ما أعنيه .. طريقة تفكيرك واسترجاعك لذكريات الطفولة رائعة .. اهتمامك بمعرفة سبب كرهك لها .. واهتمامك بالتذكر شيء جميل .. هذه الصفحات ستوفر مجهود جلسات طويلة .. سوف أقرأ هذا الكشكول على مهل ولن أترك سطرًا .

قالت لى بسعادة غامرة :

ـ شكرًا يا دكتور على اهتمامك بى .. هل تريد أن ترى ما رسمته ؟

ـ بالتأكيد .

ورأيت الرسم الذى تقول أنها سهرت ليلة كاملة فيه .. قالت بفخر :

ـ ما رأيك ؟ أليس رسمًا رائعًا ؟

ـ ما هذا ؟

ـ طبق فاكهة .

ـ نعم .. أرى ذلك .. ، ولكنى طلبت منكِ أن ترسمى ما يجول فى خاطركِ .. هل كنت جائعة وقتها ؟

قالت غاضبة :

ـ ألم يعجبك الرسم ؟!

كتمت ضحكتى وقلت :

ـ هل تعتقدين أنكِ ستشتركين فى مسابقة رسم أو أنك ستقيمين معرضًا ؟ هل تعتقدين أننى أريد تقييم موهبتك فى الرسم ؟

شعرت أنها لم تفهم سخريتى .. قلت :

ـ من فضلك .. افهمينى جيدًا .. أنا لا أريد رسمًا متقنًا ولا لوحات ساحرة خلابة .. أنا أريد أن أرى ما يدور فى عقلك مرسومًا على الورق .. أريد أن أرى فى رسمك شخصيتكِ .. فكركِ .. رأيكِ .. ميولكِ .. اتجاهاتكِ .. نظرتكِ للحياة .. مخاوفكِ .. أحلامكِ .. تأملى معى ما رسمته .. انظرى هنا .. ما الذى يمكن أن أستنتجه من طبق فاكهة ؟!

وتأملت الرسم من جديد وقلت لها :

ـ ما الذى يمكن أن أخرج به ؟ أنك تحبين العنب والتفاح والبطيخ والموز .. أو أنك تجيدين إعداد طبق الفاكهة .

نظرت لى بغضب فمددت يدى لها بالقلم والكراس ، وقلت لها :

ـ من فضلك ارسمى لى رسمًا آخر .. وأتمنى ألا يكون طبق خضروات .

ثم تذكرت شيئًا ؛ فاستطردت قائلاً :

ـ ومن فضلك لا تصنعى مركبًا .. ما زلت أحتفظ بالمركب القديم .

لم تمد يدها لأخذ القلم ، وتحول غضبها إلى ذهول .. فشجعتها على أخذه ..

وتحول ذهولها إلى خوف ..

قلت لها مندهشًا :

ـ ما الأمر ؟ لماذا لا تأخذين القلم ؟

ـ لا أستطيع تحريك يدى .

ما هذا ؟ هل من الممكن أن ..؟ حاولت تحريك يدها .. لكن بلا فائدة ..

يبدو أنها أصيبت بشلل هستيرى .. هل حدث هذا بسبب إهانتى لرسمها ؟

احتمال .. لذا قلت لها بمنتهى الحماس :

ـ رسمك رائع .. رسمك جميل .. من الذى رسمها ؟ (بيكاسو) ؟.. ما هذه التحفة الرائعة ! أراهن أنها سوف تنافس (الموناليزا) .. سوف أرشحها للعرض فى متحف اللوفر .. هل يمكننى أن أشتريها منك ؟

ولقد نجحت فى النهاية بعد محاولات عديدة .. واستطاعت الإمساك بالقلم أخيرًا ..

وبدأت الرسم ..

واستكملت أنا قراءة خواطرها ..

خواطرها المريبة ..

وإليكم بعضها ..

* * *

أعشق إشعال النار .. أحب رؤية منظرها وهى تلتهم كل شىء أمامها .. كأنها وحش أسطورى لا يجرؤ على هزيمته أحد .. وأكره لحظاتها الأخيرة .. عندما تخمد فأقوم بإشعال أشياء أخرى حتى تنمو من جديد .. وأنصرف بسرعة ؛ حتى لا أرى مصرعها .. وحتى ...

* * *

لا أستطيع النوم .. المشكلة أننى أفكر دائمًا فى ....

* * *

أحب الهدوء .. أعشق الصمت .. أكره الضوضاء .. لا أحب الثرثرة .. لا أحب التحدث مع الآخرين .. لا أحب الأماكن المغلقة .. أحب الأماكن الواسعة الخالية التى لا يوجد بها ناس .. أريد أن أسكن فى الصحراء .. أريد أن أذهب إلى ...

* * *

أعشق السيارات .. أحب قيادتها .. لكنى لم أجرب بعد أن أصدم أحدًا بها .. كيف سيكون شعورى وقتها ؟ هل سأكون سعيدة أم حزينة ؟ كيف سيكون شعور من أصدمه ؟ لم أجرب يومًا أن أقف أمام سيارة مسرعة .. ما الذى سيحدث ؟ هل سيوقف السائق سيارته ؟ ما الذى سيحدث إذا صدمنى ؟ هل سأموت ؟ هل ...

* * *

أسمع خطوات .. الأطفال نائمون .. من الذى يسير إذن فى المطبخ ؟...

* * *

أحب الأكل بكثرة منذ طفولتى .. لقد كنت سمينة فيما مضى أما الآن فأنا ...

* * *

أنا أخاف جدًّا من النار .. لقد مات عمى محترقًا .. هذه الذكرى من الذكريات السيئة فى حياتى .. حذرتنى أمى كثيرًا من إشعال النار .. لا أجرؤ على إشعال عود ثقاب .. أطلب ذلك من أمى .. من أبى .. من أخى .. ثم بعد ذلك زوجى .. لكن من سيشعل لى النار الآن ؟.. أخاف النار .. المشكلة أنهم يقولون أنى السبب فى موت عمى .. ويقولون أيضًا أننى السبب فى ...

* * *

ما الذى سيحدث لو انتحرت ؟ ما الذى سيحدث لو قذفت بنفسى من النافذة ؟ ما الوقت الذى سأستغرقه فى الوصول إلى الأرض ؟ لابد أن أحسب هذه المدة .. هل من المفروض أن ...

* * *

أحب الضوضاء .. أعشق الموسيقى الصاخبة .. وأشعر بالملل عندما أسمع موسيقى هادئة .. أحب صوت جرس المنبه .. جرس الهاتف .. أعشق دقات الساعة .. أحب أن أشاهد التلفاز

وأستمع إلى الراديو فى وقت واحد .. الجيران يتضايقون من الصوت العالى .. أنا أفعل ذلك ؛ لكى أضايق الجيران .. اليوم طرق بابى الأستاذ / رامز .. جارى الذى يسكن فوقى .. قال أنه لا يستطيع النوم بسبب الصوت العالى .. أحضرت السكين و ...

* * *

أحب أطفالى .. أخشى أن يأخذهم (قدرى) منى .. لن أتركهم له .. لن أتركهم أبدًا حتى لو اضطررت إلى ...

* * *

لا أرغب فى الأكل .. ولا أشعر بأى جوع .. ورغم ذلك أعددت الطعام .. وجلست أمامه .. ولكن فجأة وجدت كل الأطباق خالية .. متى التهمت كل هذا ؟..

* * *

لا أحب التدخين .. ولا أطيق الجلوس بجوار مدخن .. أختنق من رائحة الدخان التى تخرج من السيجارة .. المشكلة أننى أجد سجائر دائمًا فى شقتى .. أنا لا أدخن ، وأسكن مع أطفالى فقط .. أسأل نفسى دائمًا : كيف وصلت هذه السجائر إلى ...؟

* * *

أشعر بآلام رهيبة .. أتأمل جسدى فى المرآة .. ما كل هذا ؟ كأننى تعرضت للضرب ...

* **

ما هذه الأشياء ؟ من وضع هذه الأشياء فى جيبى ؟ يا لحظى السعيد .. أنا أحب هذه الأشياء جدًا ..أعشقها حتى الموت ....

* * *

أكره الأطباء النفسيين .. أكرههم جميعهم .. أتمنى أن ....

* * *

أشعر أن هناك من يختبىء تحت السرير .. لا أريد أن أرفع الملاءة .. فربما كان ظنى صحيحًا وأجد ...

* * *

أحب أطفالى جدًا .. ألعب معهم طوال الوقت .. أنسى كل همومى عندما أرى ابتسامتهم الرائعة .. لدرجة أننى ...

* * *

أعشق القراءة .. أحب الكتب جدًا .. لا يمر يوم دون أن أقرأ فى كتاب .. لدى مكتبة كبيرة فى شقتى .. المشكلة أننى لا أتذكر

متى اشتريت هذه الكتب .. وأحيانًا كثيرة أجد كتبًا لم أكن أتصور وجودها عندى مثل ....

* * *

أهوى مشاهدة التلفاز .. لكنى أشعر أنه مسكون .. مثلاً .. أطفئه على قناة معينة قبل أن أنام .. فى الصباح أجدها قناة أخرى .. هناك أيضًا مسألة الـ ...

* * *

كيف جاءت هذه المجلات السيئة إلى هنا ؟ ما هذه الصور ؟ من أحضر هذه المجلات إلى شقتى ؟ و لماذا ؟ وكيف ...

* * *

المقابر .. يا له من مكان جميل .. شاعرى .. رومانسى .. حيث الهدوء .. السكون .. يمكننى أن أعيش هنا إلى الأبد .. ولقد استيقظت يومًا فوجدت نفسى بجوار مقبرة .. كيف وَصَلْتُ هناك ؟ وكيف نمْتُ ؟ لا أتذكر .. والمشكلة الأكبر هو أننى وجدت ...

* * *

أكره البشر كلهم .. لأنهم جميعًا يكرهوننى .. لو أن الأمر بيدى لقذفتهم جميعًا

من النافذة .. أو أحضر عود ثقاب وبنزين ثم ....

* * *

هذا بعض ما جاء فى خواطرها ..

خواطر مريبة .. أفكار عجيبة .. رغبات مجنونة .. آراء متناقضة ، وكأن التى كتبتها أكثر من امرأة ، وليس امرأة واحدة .

تساءلت .. هل كتبت كل هذا فعلاً ؟ هل تتذكر ما كتبته ؟ هل قرأته بعد انتهائها منه ؟ هل قرأته قبل إحضاره لى ؟ لا أعلم .. ولكنى طلبت منها أن تستمر فى الكتابة والرسم .. لأن هذه الخواطر وهذه الرسوم سوف تخبرنى الكثير عنها .

نظرت إلى رسمها الذى رسمته خلال الجلسة .. كان رسمين .. الأول لطليقها يختطف أطفالها .. والثانى نافذة مفتوحة .

قمت بإجراء بعض الاختبارات النفسية عليها .. وعرفت أشياء أخرى عنها .

بعد انتهاء هذه الجلسة الثانية ..

وبعد الجلسة الثالثة ..

والرابعة ..

أدركت حقيقة الموقف .

السيدة (جميلة الصقرى) مطلقة .. تريد الاحتفاظ بالأطفال .. لكن جنونها يشكل عائقًا هائلاً فى سبيل تحقيق ذلك .. لذا قررت علاجها لتصبح طبيعية تمامًا .. قبل يوم القضية .

لكنى اكتشفت فى النهاية أن مهمتى مستحيلة ..

والسبب ..

أن السيدة (جميلة الصقرى) تعانى من أمراض الدنيا .

هذه هى حقيقة الموقف بكل وضوح ..

أو .. بكل تعقيد .

* * *

10 ـ حالة مستحيلة ..

يوجد تصنيفات عديدة للأمراض النفسية .. من هذه التصنيفات نذكر (DSM IV) ، وهو اختصار لـ

Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders 4th Edition

وهو عبارة عن الدليل الأمريكى التشخيصى والإحصائى للاضطرابات النفسية (الرابع) ، وقد وضعته الجمعية الأمريكية للطب النفسى .. هناك تصنيف آخر شهير هو (ICD 10) وهو اختصار لـ (International Classification of Disease) أى التصنيف العالمى للأمراض (العاشر) .. لكننا سنتناول التصنيف الأول هنا فى هذا الفصل .

هذا التصنيف قسم الأمراض النفسية إلى ستة عشر نوعًا .. سنتحدث عنهما باختصار الآن .. وسنتحدث عنهما بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ خلال أعداد السلسلة .

أول هذه الأمراض هى أمراض مرحلة الطفولة المبكرة والمتأخرة و ... المراهقة ويندرج تحت هذه الأمراض .. التخلف العقلى (Mental Retardation) ، واضطرابات التعلم سواء فى

القراءة أو التعبير المكتوب أو علم الرياضيات .. هناك أيضًا اضطرابات المهارات الحركية ، واضطرابات الاتصال مثل التأتأة (Stuttering) .. هذا إلى جانب الاضطرابات الناجمة عن قصور الانتباه ، والاضطرابات الغذائية الخاصة بمرحلة الطفولة .. إلى جانب اضطرابات أخرى عديدة .

يأتي بعد ذلك .. أمراض الهذيان ، وضعف الذاكرة .. مثل مرض باركنسون (Parkinson's Disease) وهنتنجتون (Huntington's disease) وطبعًا لا يمكننا أن ننسى هنا داء الزهايمر (Alzheimer) .

هناك أيضًا الاضطرابات العقلية التي ترجع إلى حالة طبية عامة .. إلى جانب الاضطرابات المتعلقة بمواد كالكحول وتنتج من الاستخدام المفرط لهذه العقاقير ، أو التعود عليها أو سوء استخدامها .. وهذه المواد تشمل الكحول (Alcohol) ، وأمفيتامين (Amphetamine) ، والكافيين (Caffeine) ، والقنب أو الحشيش (Cannabis) ، والكوكايين (Cocaine) ، والنيكوتين (Nicotine) ، والمسكنات ، والمنومات ، وعقاقير الهلوسة ... إلخ ، وأمراضها تشمل الهلاوس ، والهذيان ، واضطرابات النوم ، والقلق .

* * *

ما هذه الزجاجات ؟ ومن وضعها هنا ؟ ولماذا ؟.. وما هذه المادة البيضاء الغريبة ؟ سوف أشمها لأتعرفها .. رائحتها غير مألوفة .. لا أعتقد أننى ...

* * *

هناك أيضًا الفصام أى الـ (Schizophrenia) وأخواتها .. من الاضطرابات

الذهانية الأخرى .. أضف إلى ما سبق اضطرابات المزاج (Mood Disorders) ، واضطرابات القلق (Anxiety Disorders) .

أما بالنسبة لـ (Somatoform Disorders) فهى تعنى الأمراض النفسية ذات الأعراض الجسدية .. وهى تختلف طبعًا عن اضطرابات التصنع (Disorders Factitious) ففى الأخيرة يتصنع الشخص المرض بهدف البقاء فى المستشفى من أجل الهروب من حكم رسمى أو خدمة عسكرية أو .. أو ... إلخ .

هناك أيضًا الاضطرابات الانفصالية (Dissociative Disorders) وهى تشمل

(Dissociative Amnesia) ، وهى فقدان الذاكرة الانفصالى حيث يفقد الفرد كل ماضيه أو ذاكرة مرحلة معينة من حياته .. أما

التجوال الانفصالى (Dissociative Fugue) حيث يرحل الفرد فجأة ، ودون توقع إلى مكان جديد ؛ ليبدأ حياة جديدة ويفقد هويته السابقة .. أما (Depersonalization Disorder) فهو اضطراب فقدان الشخصية وشعور قوى بتفكك وتباعد الذات أو أنها غير حقيقية .

هناك أيضًا الاضطرابات الجنسية وهوية النوع (Sexual and Gender Identity Disorder) .

بالإضافة إلى اضطرابات الأكل .. ومنها (Anorexia Nervosa) وتعنى القهم العصبى أى فقدان الشهية .. أما (Bulimia Nervosa) فتعنى النهام العصبى .

* * *

ما هذا ؟ الثلاجة فارغة تمامًا .. من أكل كل الطعام الذى كان بها ؟ لابد أنهم الأطفال ، لكن ...

* * *

أما بالنسبة لاضطرابات النوم .. فتشمل الأرق (Insomnia) والكوابيس المزعجة والسير أثناء النوم .. إلخ .

* * *

لقد كنت نائمة فى سريرى .. فى غرفة نومى .. كيف وصلت إلى هنا ؟ الجوبارد جدًا هنا .. صعدت الدرج بسرعة إلى شقتى ..

* * *

هناك أيضًا اضطرابات التحكم فى الدفع (Impulse Control Disorders) وتعنى تعود الشخص على سلوكيات غير ملائمة .. ولا يستطيع التحكم فيها .

على سبيل المثال : (Intermittent Explosive Disorder) وهو اضطراب القابلية للانفجار المتناوب حيث يعانى الفرد من نوبات من السلوك العنيف ؛ فيندفع لتدمير ممتلكات الآخرين وإضرارهم .. وهوس السرقة (kleptomania) وهوس إشعال النار (Pyromania) وهوس المقامرة (pathological gambling) .

أضف إلى ما سبق .. اضطرابات التكيف (Adjustment Disorders) .

وفى آخر هذه القائمة تأتى اضطرابات الشخصية (disorders Personality) ، وتشمل اضطرابات الشخصية البارنودية (paranoid Personality) ، وتتسم هذه الشخصية بالشك والريبة وسوء الظن بالآخرين .. واضطرابات الشخصية

النرجسية (Narcissistic Personality) ومن سماتها إحساسها بالعظمة ، وأهمية الذات وتضخيم الإنجازات ..

وهناك أيضًا الشخصية الفصامية (Schizoid Personality) .. والشخصية فصامية الطبع (Schizotypal Personality) والشخصية المضادة للمجتمع (Antisocial Personality) والشخصية البينية (Borderline Personality) ، وتقع هذه الشخصية على الحدود بين الاستواء وعدمه ..

أما الشخصية الهستيرية (Histrionic Personality) فتميل إلى جذب انتباه الآخرين مع الأداء المسرحي المتكلف ، وتتصف أيضًا بالسطحية والتصنع والإسراف في التبرج والزينة ..

هناك أيضًا الشخصية الإحجامية أو التجنبية (Avoidant Personality) وتتسم هذه الشخصية بأنها تتجنب الاتصال بالآخرين وتخشى إساءتهم وتقويمهم السلبي .

والشخصية الاتكالية (Dependent Personality) ، وأهم ما يميز هذه الشخصية هي اعتمادها الزائد على الآخرين وتسليم القيادة لهم ليتحملوا المسئولية عنها ، ومقابل ذلك هو الرضوخ لهم .. ولديهم شعور دائم بأن كفاءتهم منخفضة .

والشخصية الوسواسية القهرية (Obsessive -Compulsive Personality) وتتسم بأن لديها قدرة محددة على التعبير عن انفعالات دافئة ، والانشغال بأمور متصلة بالقواعد ، والتنظيم ، والنظام ، والنظافة ، والرتابة ، والتفصيلات ، والضمير الحي والتصلب والعناد وكذلك حساب النفس حسابًا عسيرًا والاهتمام بالمظهر ، والصحة ، والميل لقراءة الموضوعات الطبية ، وهذه الشخصية مترددة ، وتكرس جهدًا زائدًا للعمل والإنتاج .

* * *

بالنسبة للسيدة (جميلة) .. وجدت فيها معظم هذه الشخصيات .. الشخصية النرجسية ، والبارنودية .. الشخصية الهستيرية ، والاتكالية .. وغيرها .

لا أشعر أننى أجلس مع مريضة واحدة .. إنها جمعية نسائية .. أشعر بأننى فى جلسة علاج جماعى لمرضى مختلفين تمامًا .. (الخاء تسبق التاء) .

أما بالنسبة للأمراض التى عندها .. فبعد ملاحظتى الدقيقة لها طيلة الجلسات وقراءتى لخواطرها ، ورؤية رسومها .. وتحليل نتائج الاختبارات النفسية .. يمكن القول بكل اطمئنان أنها تعانى من معظم الأمراض التى ذكرها هذا التصنيف .

* * *

أحب النظام .. لو وقفت فى أى طابور .. لابد أن أقوم أنا بتنظيمه .. وأحب النظافة جدًا .. لا أحب أن أرى شيئًا أمامى متسخًا .. أنظفه على الفور بأى شىء .. حتى لو اضطررت إلى استخدام ملابسى أو ...

* * *

أكره اللون الأسود .. أحب ألوان الطيف .. أحب أيضًا ...

* * *

أحب الفوضى .. لا أحب التقيد بالقوانين .. أحب الخروج عن المألوف والتقليدى .. أعشق المغامرة .. أحب الرحلات .. أود لو أن ..

* * *

إنهم يكرهوننى .. ينتظرون أى فرصة لكى يقتلوننى ، ولكنى سأشترى مسدسًا وسوف ...

* * *

السيدة (جميلة) .. يرمز لها بـ (م . ج) وهذا يعنى أنها مجنونة جدًا .. تعانى من أمراض الهذيان ، وضعف الذاكرة .. واضطرابات القلق ، والنوم .. هذا إلى جانب اضطرابات المزاج

واضطرابات التصنع .. بالإضافة إلى اضطرابات التكيف والأكل .. واضطرابات أخرى عديدة .. ولأنه من المستحيل أن يعانى الفرد من كل هذه الأمراض ؛ لذا أطلقت عليها لقب ، فريد ، من نوعه ..

لقب (حالة مستحيلة) .

* * *

أكره جيرانى .. كيف أتخلص منهم ؟ لو أن زلزالا يحدث .. وتسقط العمارة ويموت من فيها .. لو أن بركانًا ...

* * *

وإن كانت حالتها مستحيلة .. فإن علاجها سيكون أكثر استحالة .. ومع الأسف لم أتقدم خطوة واحدة فى علاجها .

كلما فكرت فى علاجها من مرض ما .. ظهر لى مرض آخر جديد لم أكن أعلم بوجوده .. وهكذا أقضى الجلسة فى اكتشاف المزيد والمزيد ..

المسألة أعقد مما تخيلت .. ألم أقل لكم حالة مستحيلة ؟! لا يمكن أن تكون هناك حالة بهذا الشكل .. إنها حالة تتكون من عشرات الحالات .. إنها تصلح موضوعًا لسلسلة .. ولتكن سلسلة (حالات جميلة) .

وفى كل عدد نتناول مرضًا تعانى منه ، وتنتهى السلسلة إما بموتها ، أو بموت الأطباء بعد فشلهم فى علاجها .

إنها حالة نادرة جدًا .. قد تظهر مرة كل قرن .. حالة تستحق الدراسة .. هناك علماء نفس كثيرين يعيشون حياتهم على أمل أن يقابلوا حالة مثلها .. لا أعلم هل هو حظى الجيد أم السيىء أن أرى هذه الحالة فى مقتبل حياتى ؟ المسألة نسبية .. ألا ترى هذا معى ؟

* * *

أحب الصداقة .. لى أصدقاء فى كل مكان .. أحب جيرانى .. وهم يحبوننى .. ودائمًا نزور بعضنا .. وفى كل مناسبة نحتفل سويًا ..قالت جارتى (مها) أنها سوف ...

* * *

لا أطيق اللون الأبيض ولا كل الألوان الفاتحة .. أعشق الأسود .. بكل درجاته .

* * *

أحب التزين .. أنسى نفسى أمام المرآة .. قد أجلس أمامها لساعات .. يقولون أننى جميلة .. أعرف أننى جميلة .. وجميلة

جدًّا .. بل جميلة جدًّا جدًّا جدًّا .. لا أحتاج أن يخبرونى بذلك .. إنهم يحقدون علىّ .. لأننى أجمل منهم جميعًا .. تود الواحدة منهم أن تنتزع وجهى لكى ...

* * *

قالت السيدة (جميلة) لى فى نهاية الجلسة الخامسة :

ـ هل هناك أمل ؟

ـ الله قادر على كل شىء .. ولكن هل ترغبين حقًّا فى الاحتفاظ بأطفالك ؟

ـ وهل هذا سؤال يا دكتور ؟

ـ قد يبدو سؤالى غريبًا ولكن .. اعذرينى .. أشعر أنك لا تساعدينى فى علاجك ، وهذا لا يعنى سوى شيئًا واحدًا هو أن مسألة الأطف ...

قطعت جملتى عندما لمحت بودار الغضب على وجهها .. فكرت فى إعادة صياغة الجملة حتى أمتص غضبها ولكن ..

قبل أن أفكر فى الجملة المناسبة اكتشفت أن حديثى ليس له علاقة بالموضوع .. لقد ظهر عليها الغضب لأنها رأت ..

- (وحيد) .. ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

تلفت حولى .. لم أجد أى (وحيد) ..

لكنى تركتها تتحدث معه .. ولم أقاطعهما .

* * *

لقد شعرت بلذة الحب مرتين .. المرة الأولى .. عندما قابلت (وحيد) .. لكنه مات فى حادث سيارة ..

المرة الثانية عندما قابلت (قدرى) .. طليقى .. لكنه لم يمت بعد .. مع الأسف .

* * *

بعد دقائق من الحديث الرومانسى الرقيق .. تأبطت ذراع (وحيد) حبها الأول .. وخرجت معه ..

خرجت مع الرجل الخفى الذى لا يراه سواها ..

خرجت دون إلقاء تحية أو تحديد موعد للجلسة القادمة .

أريد أن أعرف شيئاً .. لو أنها بهذه الحالة طوال الوقت كيف تعود إلى منزلها ؟ وكيف تأتى منه كل مرة ؟

كيف ؟

والسؤال الأهم : كيف سأعالجها من هذا كله ؟ وفى هذه المدة المحدودة ؟

إن الأمر يحتاج إلى معجزة ..

فهل ستحدث ؟

* * *

11 ـ تهديد ..

قالت السيدة (جميلة) ، لى وهى مسترخية على الشيزلونج أثناء الجلسة السادسة :

ـ هل حالتى سيئة إلى هذا الحد ؟

ـ .....

ـ سيربح طليقى القضية .. وسيحرمنى من أولادى إلى الأبد .. أليس كذلك ؟

ـ أنا لم أقل شيئًا .

لا يمكن أن أصارحها بأن حالتها أعقد مما تتصور .. لا يمكن أن أخبرها أن حالتها مستحيلة .

وفى نفس الوقت ما زلت أتعجب من هذا الكم الهائل من الأمراض .. وأحيانًا أرى أن احتمال تصنع المرض وادعاء الجنون تفسيرًا معقولاً لهذه الحالة .. لأنه لا يمكن أن يعانى إنسان من هذا كله .. لكنه بإمكانه ادعاء ذلك .. لكن لو افترضنا ذلك فلماذا تدعى ؟ إنها آخر إنسان على الأرض تريد ادعاء ذلك .. إن جنونها يعنى أن تفقد أطفالها .. لقد طلبت ، ومازالت تطلب شهادة

تثبت العكس .. وهكذا أَصِلُ إلى نتيجة واحدة .. أنها لا تدعى الجنون ..

إنها مجنونة بالفعل ..

مجنونة جدًّا ..

وهذا يعنى أنها لن تسترد أولادها لو ظلت على هذه الحالة .. أنا أول من سيمنعها من الاحتفاظ بهم .. لا يمكننى أن أترك هذه الكائنات البريئة فى أحضان أُم بهذه المواصفات .. لا أعلم كيف تربيهم ، وهى بهذا الجنون .. من يضمن لى أنها لن تضعهم فى الغسالة بهدف تنظيفهم أو تضعهم فى الفرن على سبيل تدفئتهم ؟.. الاحتمالات كثيرة ومخيفة .

- « لا .. لن تأخذوا أولادى منى . »

قالتها بصوت قوى .. أعتقد أن من بالخارج قد سمعها .. ثم تابعت قائلة :

- لا .. لن تأخذهم منى يا (قدرى) .

(قدرى) هذا هو زوجها .. (قدرى المنياوى) .. رجل الأعمال .. من الواضح أنها تعيش الآن لحظة من المستقبل القريب حين يربح زوجها القضية ، ويأخذ أولادها منها .. هى

تعيش الآن اللحظة قبل أن تعيشها بالفعل .. أمر غريب .. ولكنى اعتدت هذه الأمور الغريبة منها .. حتى إننى فقدت القدرة على الاندهاش .

جلست أتأمل انفعالاتها .. ما الذى سيحدث لها عندما يأخذوا أولادها منها ؟ هذا هو ما أراه الآن .. وهذا هو ما سيحدث بالفعل ؛ لأن زوجها سوف يربح القضية بالتأكيد .. لن يستعين بمحامى أو شهادة .. يكفيه إحضار الأم إلى قاعة المحكمة ، ولن يحتاج إلى استدعاء طبيب نفسى لإبداء رأيه .. إن حالتها واضحة كالشمس .

وسيأخذ الأب أولاده إن لم تحدث فى الأمور أمور .. ما الذى ستفعله الأم حينها ؟ سأعرف الآن .. ففى هذه اللحظة أشاهد الموقف التراجيدى الرهيب .. كأننى انتقلت بآلة الزمن إلى المستقبل .

ـ « أطفالى .. أحبائى .. لن أستطيع العيش دونكم . »

موقف صعب فعلاً .. أتمنى ألا أراه فى الواقع .

ثم تابعت قائلة ، والحزن يعتصرها ، وتفرد ذراعيها أمامها ، وتمد يدها للهواء ، وكأنها تشجع أطفالها للارتماء فى أحضانها :

ـ تعالَ يا (جمال) .. تعالَىْ يا (جنات) .

واندفعت نحو النافذة ..

تحاول الانتحار للمرة التاسعة .

* * *

مسألة الانتحار تحيرنى جدًّا .. لقد حاولت الانتحار تسع مرات أمامى حتى الآن .. فى كل مرة تندفع نحوالنافذة وبنفس الحماس الجنونى .. حتى إنى أفكر فى غلق هذه النافذة إلى الأبد .. وبحسبة سهلة : لو أنها حاولت الانتحار هنا فى العيادة تسع مرات فكم مرة حاولت فى الخارج ؟ سؤال آخر : من يمنعها فى كل مرة ؟

أما بالنسبة لأسباب الانتحار فإنها عديدة .. ربما حاولت الانتحار لأنها فقدت كل أمل لها فى الحياة .. قررت أن تنهى حياتها قبل أن تنتهى فور صدور الحكم .

ربما هى شخصية انتحارية .. تعشق الانتحار .. وهذه الفئة لاتعيش طويلاً .

ربما هناك أسباب أخرى .. أسباب من خيالها .. مثلاً .. تتخيل أن طفليها يقفان فى النافذة .. مثلاً .. تنتحر لأن خطيبها تركها

.. وطبعًا خطيبها هذا من خيالها .. مثلاً .. تنتحر لتتأكد من وجود الجاذبية الأرضية .. لقد تعودت على مثل هذه الأمور .

والحمد لله استطعت إنقاذها فى جميع المرات السابقة .. ولكن ماذا يحدث لو لم أنتبه لها فى المرة القادمة ؟ ربنا يستر .

لا أريد أن ينتقل اسمها من سجل الأحياء إلى سجل الأموات .

ومحاولات الانتحار هذه من الأشياء التى تجعلنى أمحو فكرة ادعاءها الجنون نهائيًا .. لأن هذه أشياء من الخطر ادعائها .. لذا فأنا واثق أنها مجنونة وأنها عازمة على الانتحار فعلاً .

قالت لى ، وقد عادت إلى طبيعتها :

ـ أرى اليأس فى عينيك يا دكتور .

لم أندهش لقولها .. إنها صادقة تمامًا .. هل تعرفون اللحظة التى يترك فيها الطالب القلم أثناء الامتحان ؟ هذه اللحظة التى يشعر فيها أنه لن يستطيع كتابة المزيد .. لم يعد فى جعبته شىء ؛ ليقدمه ..

نفس اللحظة التى يترك فيها الطبيب مشرطه ، ويخرج من غرفة العمليات .. حين تأكده من وفاة مريضه ، وأنه لن يستطيع تقديم أى عون له .

لقد وصلت إلى هذه المرحلة .. لن أنجح فى علاجها .. ولو استخدمت جميع وسائل العلاج ، ولو أن القضية أُجلت لقرنين من الزمان .. فلسوف يربح زوجها فى النهاية .

ويبدو أنها أصبحت تعلم ذلك أيضًا .. لذا قالت :

ـ لن يفيد العلاج .. حالتى مستعصية .. أليس كذلك ؟

لم أجب .. خشيت أن أجيب بتفاؤل فيبدو الكذب واضحًا فى كلماتى فرأيت أن الصمت أفضل حل .. أما هى ..

ـ حسنًا .. ليس أمامى حل آخر .

ـ وهو ..

ـ سأطلب شهادتك فى المحكمة ، وستقول أمام الجميع أننى بكامل قواى العقلية .

ـ لن يحدث هذا أبدًا .. لقد كنت رافضًا أن أعطيك شهادة قبل أن أعرف حالتك .. أما الآن ، وقد عرفتها تمامًا فهل تتصورين أننى قد أدلى بشهادة زور أو أوقع على واحدة ؟

سوف أستدعيك للشهادة فى المحكمة .

ـ حسنًا .. سأقول رأيى بصراحة ، و تأكدى أنه لن يفيدك إطلاقًا .. لو أنك تريدين أن تلعبى هذه اللعبة فابحثى عن شاهد آخر .

ـ ليس هناك وقت .. سوف أطلب شهادتك .. وقل ما يحلو لك .

ـ سأقول الحقيقة .

ـ كما تريد .

صمتت لدقيقة ، ثم سألتنى فجأة ، وبكل بجدية :

ـ من أعز إنسان لديك ؟

كدت أنطق بالإجابة ، ولكنى تذكرت ما حدث فى الجلسة الأولى عندما سألتنى عن أعز شىء لدى ، وفقدت الزهرية بعدها .

أجبت قائلاً :

ـ لا يوجد .

ـ حسنًا .. سأراقبك .. وسوف أعرف من هو أعز إنسان لديك .. فاذا أدليت بالحقيقة فى المحكمة ، وتسببت فى انتزاع أطفالى منى .. فسوف أنتقم منك .. وسأنتزع منك أعز إنسان إلى قلبك .. والعين بالعين .

صحت غاضبًا :

ـ هل تهددينني ؟

لم تنبس ببنت شفة .. فقط ارتدت نظارتها ، وحملت حقيبتها وانصرفت قائلة :

ـ نلتقى فى المحكمة .. سلام .

وصفقت الباب وراءها فى عنف .

* * *

12 ـ الزائر الليلى ..

دق جرس الهاتف ..

كنت أجلس فى شقتى أتناول فطورى عندما سمعت صوته المزعج .. تناولت السماعة بصعوبة .. ثم وضعتها بعناء بين كتفى ورأسى و ...

ـ من ؟

ـ كيف حالك ؟

هى .. إنها هى .. أميرتى .

ـ أمهلينى ثوانى .

مسحت يدى بمنتهى السرعة ثم عدت إليها ..

ـ اليوم جميل .. لماذا قالوا فى نشرة الأرصاد أنه سيكون سيئًا ؟! أنا متأكد أنه سيكون جميلاً .. هذا أقل وصف ليوم يكون فيه صوتك هو أول ما أسمعه .

سمعت صوتها الدافىء الحنون يتسلل إلى أذنى بنعومة عبر السماعة :

ـ كيف حالك ؟

ـ بأفضل حال .. فأنا أسمعكِ الآن .. هل تعتقدين أن هناك من هو أوفر حظًا منى ؟

ـ ماما تسلم عليك .

ـ هل هى بجوارك ؟

ـ نعم .

ـ كيف حالها ؟

ـ بخير .. وسوف نقوم بزيارتك اليوم إن شاء الله .. أنا وهى .. ما رأيك ؟

كدت أجيب بأننى مستعد أن ألغى جميع ارتباطاتى لو أننى مشغول .. ولكنى تذكرت شيئًا ..

* * *

ـ من أعز إنسان لديك ؟

* * *

كلمات السيدة (جميلة) تتردد فى أذنى .. مازال تهديدها لى بالأمس عالقًا بذهنى .. يطرق بشدة على أبواب عقلى .. يفجر مئات التصورات المخيفة أمام عينىَّ .

* * *

حسنًا .. سأراقبك .. وسوف أعرف من هو أعز إنسان لديك .. فإذا أدليت بالحقيقة فى المحكمة وتسببت فى انتزاع أطفالى منى .. فسوف أنتقم منك .. وسأنتزع منك أعز إنسان إلى قلبك .. والعين بالعين .

* * *

لو أنها متزنة لرأيته مجرد تهديد أجوف .. لكنها مجنونة .. إذن الوضع يختلف .. ولو أضفنا إلى ذلك غضبها فالأمر سيكون كارثة على أقل تقدير .. لقد هددتنى .. أعلم أنه لن يحدث شيئًا قبل النطق بالحكم .. ولكنى أعرف الحكم من الآن .. سوف أدلى بشهادتى التى لن ترضيها .. وهكذا سيحكم القاضى لطليقها .. سوف تغضب .. سوف تثور .. سوف تنفذ تهديدها لتنتقم .. قالت أنها ستراقبنى ؛ لتعرف من هو أعز إنسان إلى قلبى .. ربما هى تراقبنى الآن بالفعل .. مجنونة وتعملها .

* * *

ـ هل تهددیننى ؟

* * *

لذا من الأفضل أن أبتعد عن خطيبتى حتى أضمن لها السلامة .. لا أريدها أن تتعرض لأذى بسببى .. مرة أخرى .

يكفى ما رأته على يد مرضاى حتى الآن .. لو أنها فتاة أخرى لفسخت خطبتنا منذ قرون .. لكنها تحبنى .. لهذا لم تفعل .. أو بمعنى أدق .. لم تفعل لهذه الأسباب .

لقد فعلتها من أجل أسباب أخرى ، وأتمنى ألا تفعلها ثانية .

يجب ألا نتقابل فى أماكن عامة .. يجب ألا أزورها فى بيتها حفاظًا على حياتها .. سأكتفى بالمحادثات الهاتفية .. يمكنها أن تزورنى فى العيادة .. تأتى وكأنها واحدة من مرضاى .. سيكون وضعًا صعبًا وغير مألوف .. ولكن للضرورة أحكام .. ولن يستمر هذا الوضع كثيرًا .. سوف أعرف أين تسكن هذه السيدة ، وأبلغ الشرطة أوالمستشفى عن مدى خطورتها على حياتى وحياة من حولى .. وينتهى الأمر .

ماذا أقول لخطيبتى الآن .. كيف أخبرها أنه لا يجب أن تزورنى ؟

ـ (ياسين) .. لماذا لم ترد ؟

ـ فى الواقع ..

ـ أشعر أنك لست سعيدا بما قلته .

ـ بالعكس .. ولكن .. الشقة .. تجرى بها إصلاحات ولا يمكنكم الجلوس فيها .

ـ حسنًا .. فلنؤجل هذه الزيارة حتى تنتهى هذه الإصلاحات .

ـ كنت سأقترح هذا .

ـ حسنًا .. متى سنراك ؟ هل ستأتى لزيارتنا اليوم ؟

ـ فى الواقع ..

ـ ما بك يا (ياسين) ؟

ـ ماذا ؟

ـ أشعر بأن هناك .. لا أدرى .. أشعر أنك لست (ياسين) الذى أعرفه .

ـ لماذا تقولين هذا ؟

ـ أخبرنى أنت .. ما بك ؟

ـ لا شىء .. أنا مشغول فقط لذا لن أستطيع زيارتكم الليلة .

ـ حسنًا .. لنتقابل غدًا فى الـ ...

ـ غدًا أيضًا مشغول .

ـ وبعد غد ؟

ـ مشغول .

ـ حسنًا .. أخبرنى متى ؟

ـ فى الواقع ..

ـ ما الذى حدث لك ؟ أشعر إنك لا تريد رؤيتى .

ـ لا .. ولكنى مشغول جدًا هذه الأيام .

ـ حسنًا .. عندما تجد وقتًا .. اتصل بى .

ـ فى الواقع ..

ـ (فى الواقع) .. (فى الواقع) .. لماذا تكرر هذه الكلمة ؟ هل تكذب علىَّ ؟

ـ لا .. أبدًا .

ـ حسنًا .. يبدو اننى أعطلك عن عملك .

ـ لا .. أبدًا .. لم أعن ذلك .

ـ ....

ـ لماذا لا تتكلمين .. هل غضبت منى ؟

ـ ألا ترى أن ما قلته يستحق ذلك ؟

ـ فى الواقع ..

* * *

أجلس فى شقتى بعد يوم طويل فى العيادة ..

لا أتوقع زيارات ليلية من أحد لذا اندهشت كثيرًا عندما سمعت طرقات على باب شقتى فى هذه الساعة ..

فتحت الباب لأعرف من ذلك الزائر الليلى .. لم يخطر ببالى قط أن الطارق هو ...

السيدة (جميلة) بنفسها .. بكامل زينتها وبالنظارة السوداء إياها .

ابتسمت ابتسامة كبيرة ، وقالت هامسة :

ـ كيف حالك يا د. (ياسين) ؟

ـ كيف عرفت عنوان منزلى ؟

لم ترد .. يبدو أنها فعلاً تراقبنى .. سألتنى ، وهى تتقدم إلى الداخل :

ـ هل يمكننى الدخول ؟

أفسحت لها المجال فدخلت .. ربما لو رفضت إدخالها لأثارت ضجة يسمعها الجيران فى العمارة المقابلة .

طبعًا تركت الباب مفتوحًا .. نعم هى مريضتى ، ولكن هذه ليست العيادة .. أنا رجل أعزب .. أعيش بمفردى فى هذه الشقة .. التى ستكون عش الزوجية السعيد الذى سيجمعنى بملاكى الرقيق .

جلست السيدة (جميلة) على الأريكة وقالت بجدية :

ـ هل فكرت فيما قلته لك ؟

ـ عن أى شىء تتحدثين ؟

ـ أنا فكرت .

ـ يا سلام .. فكرت فيما قلته أنتِ لى .

لم تقل شيئًا .. صمتت لأسابيع ثم قالت :

ـ شقتك معقولة .. أين زوجتك والأولاد ؟

ـ أنا لست متزوجًا .. ما الذى تريدينه بالضبط ؟ ما سر هذه الزيارة الـ ... جميلة ؟

خلعت نظارتها ووضعتها بجوارها وقالت :

ـ أرغب فى جلسة .

قلت لها ، وقد نفذ ما أملكه من الصبر :

ـ هناك مكان يدعونه عيادة .. هذه شقة ، وأنا رجل أعزب ، وزيارتك هذه قد ..

قاطعتنى قائلة :

ـ لا أستطيع أن آتى إلى العيادة .. أخشى أن يرانى أحد فيبلغ طليقى بأننى أتردد على عيادة طبيب نفسى .

تقول هذا الآن .. بعد ترددها على عيادتى باستمرار طوال الأيام السابقة .. قلت لها ، وقد نفذ مخزونى الاحتياطى من الصبر :

ـ وهل تعتقدين أن طليقك لا يعلم بحالتك ؟

ـ سنفترض أنه لا يعلم .

ـ لو أنه لم يلاحظ ذلك فإنه إما أعمى وأصم أو .. مجنون .

نظرت لى نظرة غامضة ثم ابتسمت ابتسامة شيطانية .. وبرزت عيناها حتى خشيت أن تخرجا من محجريهما .. أفهم هذا الشعور

جيدًا .. ولو أننا فى قصة مصورة لوجدت مصباحًا مضيئًا فلهر فجأة فوق رأسها .. إنه شعور من توصل إلى فكرة عبقرية .. أعتقد أنها ستصيح فى أى لحظة (وجدتها .. وجدتها) .

ـ يا لك من عبقرى يا دكتور .. لقد أعطيتنى الحل .

ـ أنا لم أقل شيئًا .

قالت بمنتهى السعادة :

ـ بالعكس .. إن جملتك هى التى أعطتنى الحل .. الحل العبقرى .. لماذا لم أفكر فى هذا من قبل ؟

ـ حسنًا .. هل يمكننى أن أعرف هذا الحل ؟

ـ بالتأكيد .

وأخبرتنى بالحل العبقرى .

* * *

قلت للسيدة (جميلة) بغضب :

ـ لا يمكننى أن أفعل هذا أبدًا .

ـ لماذا يا دكتور ؟ إنه حل عبقرى .. فكِّر معى .. سيقدم طليقى شهادة بأننى مجنونة .. لماذا لا أقدم أنا شهادة بأنه مجنون ؟ كل ما عليك هو أن ..

قاطعتها قائلاً :

ـ لو أن زوجك قدم هذه الشهادة فلن تكون مزورة لأنك مجنونة بالفعل .

ظهر على وجهها الغضب فى أسوأ صوره ، فقلت محاولاً تخفيف الجملة :

ـ ... أحيانًا .

هدأ شيطان الغضب بداخلها قليلاً .. فأكملت :

ـ أما لو قدمنا نحن هذه الشهادة فإنها ستكون مزورة .. لأن زوجك ليس مجنونًا .

ـ من قال أنها ستكون مزورة ؟ هل رأيت طليقى ؟هل تعرفه ؟

ـ لا .. ولكنى متأكد أنه ليس مجنونًا .

ـ لِمَ كل هذه الثقة ؟

ـ بمنتى السهولة .. لأنه لوكان مجنونًا لما فكرتِ فى هذا الحل الآن .. كنتِ ستقترحينه بالتأكيد فى أول دقيقة من أول جلسة .

ـ أنا لا أراه كذلك .. ربما أنا مخطئة فى تقدير طليقى .

ـ ما الذى تعنيه ؟

ـ أعنى أنك بنيت نظريتك على رأيى فى طليقى .. وقد أكون مخطئة .. ربما هو مجنون بالفعل ولم ألحظ ذلك .. أما أنت فطبيب نفسى .. ستقول رأيك فيه باعتبارك خبيرًا بهذه الأمور .. ستقول رأيك المهنى .. دون تأثر من أى نوع .

ـ أفهم من ذلك أنكِ تريدين أن أقابل طليقكِ .

ـ لا .. طبعًا .. لن يحدث ذلك أبدًا .

نظرت لها مندهشا فقالت بهدوء :

ـ أنا لا أريده أن يعرف أننى أتردد على عيادتك أو أنك تعرفنى .

ـ ما الذى تريدينه إذن ؟

ـ الشهادة .. أريدك أن تقول رأيك فى طليقى دون أن تراه .. أريد منك شهادة بأن طليقى مجنون .. وتأكد أن هذا ليس تزويرًا .. أنا أتذكر الآن بعض التصرفات الذى قام بها .. أعتقد أنه مجنون بالفعل .. ما رأيك الآن ؟ هل ستنفذ ؟

ـ لا .. طبعًا .

نهضت قائلة بغضب :

ـ حسنًا .. لن أنتظر يوم القضية .. أريد منك الشهادة .. والآن .

قلت لها مازحًا :

ـ أى شهادة تريدينها ؟ لقد طلبت منى شهادات كثيرة .. آه .. تذكرت .. أنت تريدين شهادة الثانوية العامة .

ـ دكتور .. أنا أريد شهادة تثبت أننى بكامل قواى العقلية .

ـ لا أستطيع .. هل تصلح شهادة محو الأمية ؟

ـ حسنًا .. فلتعطنى شهادة تثبت أن طليقى مختل عقليًا .

ـ هل تعتقدين أنك ستربحين قضيتك بمثل هذه الشهادة ؟ سوف يقدم طليقك عشرات الشهادات التى تثبت العكس .. (بلد شهادات صحيح) .

ـ دكتور .. أنا لا أمزح .. سوف أفقد أطفالى بسببك .

ـ أنا .. لماذا ؟ ما الذى فعلته ؟

ـ دكتور .. أرجوك .. قدِّر ظروفى .. أنا أم .. أم ستفقد أطفالها .. والحل الوحيد فى يديك .. طالما أنك أعلنت فشلك فى علاجى ، فليس أمامى سوى الشهادات .

ـ وهل تعتقدين أننى سأجرؤ على إعطائك مثل هذه الشهادة بعد أن رأيت حالتك ؟

قالت بتردد :

ـ ربما .

ـ يبدو أنك لا تعرفيننى جيدًا .. خلاصة القول .. لن أعطيك أى شهادات .. ولو طلبت شهادتى فى المحكمة سأقول الحقيقة .. وأنقذ أطفالك منك .. أنت لا تستطيعين رعايتهم .. أنت بحاجة لمن يرعاك .

يبدو أن كلامى أغضبها جدًا .. لم أر هذه التعبيرات على وجهها من قبل .. صاحت بقوة :

ـ دكتووووور .

أعتقد أن الجيران قد استيقظوا الآن .. ليسوا صُمًا .. أو موتى .. كيف سأقنعهم أن هذا الصوت ليس انفجار أنبوبة غاز ؟

أكملت السيدة (جميلة) حديثها بنفس الدرجة .. عشرة ريختر :

ـ لآخر مرة أقولها .. اعطنى هذه الشهادات ، وإلا ...

قلت لها متحديًا :

ـ ماذا ستفعلين ؟

ـ لو لم تعطنى الشهادات الآن .. سأقتل أعز الناس إلى قلبك .

لا أعتقد أنها تمزح .. قلت لها بهدوء :

ـ اهدئى .. يمكننا أن نتفاهم .. لابد أن هناك حلاً آخر .

ـ لن أهدأ ولا يوجد حلول أخرى .. الشهادات الآن وإلا سأقتل أعز الناس لديك .

تماسكت ، وطردت الصورة الدموية التى ارتسمت فى عقلى .. لا أريد أن أهتز أمام تهديداتها .. قلت بمنتهى البرود المصطنع :

ـ لا يوجد عزيز لدىّ .. لذا أنا مطمئن .

شعرت أنها صدقتنى .. يبدو أن طريقتى لا تخيب أبدًا .. قالت بجدية :

ـ حسنًا .. إذا لم تعطنى الشهادات سوف أقتلك أنت .

ثم أخرجت من حقيبتها مسدسًا ، وصوبته نحوى .

* * *

13 ـ تحت التهديد ..

لوحت السيدة (جميلة) بالمسدس فى وجهى ، وقالت بلهجة تهديد :

ـ سأقتلك .

أريد أن أعرف كيف حَصَلْتَ على هذا السلاح .

قلت لها بهدوء :

ـ اهدئى .. وألقى بالمسدس .. هذه الأشياء خطرة .. احترسى .

لابد أن أتعامل معها بهدوء تام .. لأنها مجنونة ، وقد تفعل أى شىء .

ـ هل ستعطينى الشهادات أم أُحْدِث ثقبًا فى رأسك ، أرى من خلاله الجدار ؟

أين صديقى الذى يحلم بأن يكون طبيبًا نفسيًا ؟ فليأت ليرانى الآن .. سيغير رأيه بالتأكيد .. قلت لها بمودة :

ـ من فضلكِ .. أعطينى هذا المسدس .

ـ أعطنى أنت الشهادات أولاً .

ـ حسنًا .. هل تعتقدين أن هذه الشهادات جاهزة ينقصها توقيعى . هذه الأمور تحتاج إلى وقت .. وأختام وتوقيعات ... إلخ .

ـ أيعنى هذا أنك موافق على المبدأ ؟

قلت محاولاً إنهاء الموقف :

ـ بالتأكيد .

صاحت فرحة ، وهى تلوح بالمسدس ، وتوقعت خروج رصاصة منه فى أى لحظة :

ـ أخيرااااااا .

قلت لها مادًا يدى بسلام :

ـ أعطينى المسدس ، واطمئنى .. سأنفذ لكِ كل ما تريدين .

ـ أحقًا يا دكتور ؟

ـ نعم .. اطمئنى تمامًا .. هيا .. أعطينى المسدس .

لوحت بالمسدس من فرط سعادتها .. أخشى أن تخرج الرصاصة خلال هذه اللحظة .

هل أتصل بالمستشفى الآن ؟ لن أتركها للحظة بالخارج بعد هذا الموقف العصيب .

أخذت منها المسدس ببطء شديد حتى لا يصاب أحدنا ، وفى نفس اللحظة كنت أفكر فى طريقة لتقييدها حتى أستطيع الاتصال بالمستشفى .. هل أنا مضطر لإفقادها الوعى ؟ سألتنى وهى تصفق بيديها من الفرحة :

ـ متى يمكننى الحصول على هذه الشهادات ؟

أجبتها بكل تلقائية وباقتضاب :

ـ فى المشمش .

كيف سأفقدها الوعى ؟ كنت أفكر فى إجابة هذا السؤال بينما هى ..

ـ ما هذا ؟ هل كنت تخدعنى حتى تستطيع الحصول على المسدس ؟

ـ وهل كنت تعتقدين أنى سأرضخ للأمر لمجرد أنك تهددين بقتلى ؟

ـ أيعنى هذا أنك لا تخشى الموت ؟

لم أرد .. عقلى مشغول بالبحث عن وسيلة لإفقادها الوعى دون إصابات .. قالت :

ـ حسنًا .. طالما أن تهديدى بقتل أعز الناس لديك و تهديدى بقتلك لم يأت بنتيجة ؛ سأهددك بقتل آخر شخص يمكنك تخيله .

قلت بلا مبالاة .. والمسدس لا يزال معى :

ـ من هو ؟

قالت ببرود :

ـ أنا .

كانت محقة بشأن أنها آخر شخص يمكننى تخيله .

* * *

قالت لى مهددة ، وعلى شفتيها ترقص ابتسامة شيطانية مخيفة :

ـ إذا لم تعطنى الشهادات الآن ؛ سوف أقتل نفسى .

ـ وهل تعتقدين أنك بهذه الطريقة تهددينني ؟

قالت بكل ذكاء :

ـ أنت بالتأكيد لا تريد جثة امرأة فى شقتك .. سيكون أمرًا يصعب تفسيره أمام رجال الشرطة ، وستجد نفسك بين يوم وليلة متهمًا بالقتل .. ستقضى بقية عمرك فى السجن أو على الأقل فى البحث عن وظيفة أخرى .. بعد فشلك فى استعادة سمعتك الطيبة التى ستتدهور بعد هذا الحادث .

لم أستطع التفوه بكلمة .. أدهشنى ما قالته .. لم أكن أعلم أنها بهذا الذكاء والجنون !

سألتنى وفى عينيها نظرات جنونية شيطانية :

ـ ما قولك الآن ؟

= .....

ـ دكتور .. أريد الشهادات ، والا سأقتل نفسى الآن .

ـ كيف ستقتلين نفسك ، وأنا معى المسدس ؟

ابتسمت ابتسامة شيطانية أخرى ، ثم هرعت إلى الداخل .. هل تعلم أن هذا هو المطبخ أم أنها دخلته خطأ ، وكانت تريد الانصراف ؟ سوف أعرف الآن .

وَضَعْتُ المسدس فى جيبى مؤقتًا .. لحين وضعه بجوار صديقه فى الدرج .. ذلك المسدس الذى حصلت عليه من (زكى) القاتل المأجور الذى حاول قتل أميرتى .

الآن لدى مسدسان .. يبدو أننى أمارس هواية جمع المسدسات دون أن أدرى ..

ويا لها من هواية !

خرجت السيدة (جميلة) من المطبخ قائلة بغضب :

- أين تضع السكاكين ؟

- ليس لدى مع الأسف .

لأول مرة أكون سعيدًا لأن جيراتى يستعيرون منى أدوات المطبخ .. قالت بغضب :

- أين تضع أقراص المنوم ؟

هل تعتقد هذه السيدة أنى سوف أخبرها بمكان السكاكين أو اقراص المنوم لو أنهما عندى ؟ قلت لها بهدوء :

- لا أعتمد على الأقراص فى النوم .

قالت لى متحدية :

- حسنًا .. هناك طرق أخرى للانتحار .. فهل ستعطينى الشهادات أم أجرب إحدى هذه الطرق أمامك الآن ؟

كيف أنهى هذا الموقف السخيف ؟ لابد أن أفكر بسرعة .. طبعًا لن أهددها بالمسدس لأمنعها من الانتحار ..

وبينما أفكر ، وأفكر ، وأفكر .. صاحت فجأة :

- من الواضح أنك لا تريد إعطائى الشهادات .. حسنًا .. أنت أردت هذا .

واتجهت إلى النافذة بسرعة ، وفتحتها على مصراعيها ، ثم رفعت قدمها اليمنى ، وأخرجتها ، و ...

هل ستنتحر فعلاً ؟ ربما .. الانتحار ليس شيئًا صعبًا بالنسبة لها .. لقد حاولت ذلك من قبل .. تسع مرات أم عشر ؟ طبعًا لن أتركها تنتحر .. لن أتركها تموت حتى لوكانت ألد أعدائى .. فما بالك بامرأة وأم ؟ أم ربما لا تدرى شيئًا عما تفعله .

اتجهت نحوها بمنتهى السرعة ؛ لأنقذها من الموت .. أحطت خصرها بذراعى ، وجذبتها إلى الداخل .. حاولت التملص منى ، والتشبث بالنافذة كعادتها كلما حاولت الانتحار .

ولكن قوة جذبى كانت أكثر كالعادة ؛ فأفلتت يدها ، وعادت ساقها من الخارج .. لقد صارت فى بر الأمان الآن .. بعيدًا عن النافذة .. بين ذراعى .. تنظر لى بغضب .. هنا سمعت صوتًا خلفى ..

صوتًا مألوفًا لى .. نظرت للوراء ..

رأيت آخر شخص أتمنى أن يرانى فى هذه اللحظة وفى هذا المشهد ..

آخر شخص .

* * *

14 ـ خيـــانة ..

كانت خطيبتى هى الزائرة ..

فى هذه الليلة .. وفى هذه الساعة .. وفى هذه اللحظة ..

جاءت مع والدتها لزيارتى .. خططا للقيام بزيارة مفاجئة ..

صعدا الدرج بهدوء حتى تكون المفاجأة مفاجأة .. وصلا لشقتى .. كان الباب لا يزال مفتوحا كما تركته .

رأت خطيبتى المشهد .. التقطت عينيها الصورة وسجلتها فى ذاكرة المدى الطويل .. سأستغرق سنوات حتى أتمكن من محو هذا المشهد من ذاكرتها .. ربما سيحتاج الأمر إلى جلسة تنويم مغناطيسى .

المشهد باختصار .. السيدة (جميلة) بين ذراعى .

فهمت أميرتى المشهد كما صوره لها شيطانها .. اعتقدت أنه مشهدا غراميا .. كيف ستفكر أننى كنت أمنعها من الانتحار ؟! ليس خيالها جامحا إلى هذا الحد .. ولكنها الحقيقة .

تجمدت أميرتى مكانها لثوان .. كأنها تمثال من الشمع .

أخشى أن تفقد الوعى من الصدمة .. لقد وعدتها ألا أخونها وما زلت على وعدى ، ولكنها ترانى الآن قد خالفت كل الوعود والعهود .

صاحت أخيرًا .. لكى أطمئن أنها مازالت حية ترزق .. صاحت بكلمة واحدة لخصت وجهة نظرها فى الموقف :

ـ خيـاااااااانـة .

خطيبتى (نادين) .. مغرمة بمشاهدة الأفلام العربية .

أبعدت السيدة (جميلـة) عنـى بعنـف ، واتجهت إلـى خطيبتـى مترددا .. أخشى رد فعلها لذا حاولت أن أترك مسافة معقولة بيننا .. نظرت لى بغضب قائلة :

ـ لهذا لم تكن تريدنى أن أزورك .. حتى يخلو لك الجو .

ـ لا .. أرجوك .. يجب أن تفهمى المو ..

قاطعتنى لتمنعنى من شرح الموقف قائلة وهى تتأمل الشقة :

ـ أين هى الإصلاحات التى حدثتنى عنها ؟ كيف ستبرر كذبك ؟

لو انها تعلم ! لقد كذبت عليها حفاظًا على حياتها .. أردت أن أجنبها الخطر .. كيف سأفسر لها هذه النقطة ؟ حـاولت أن أقول حرفًا .. لكنها لم تعطنى الفرصة .. سألتنى :

ـ من تكون هذه ؟

ـ إنها (جميلة) .

فهمت إجابتى بطريقة خاطئة والدليل على ذلك أنها قالت :

ـ أرى ذلك .. أمن أجل جمالها تركتنى يا خائن ؟

ثم نظرت إلى أمها وقالت والدموع تنهمر من عينيها :

ـ كان معك حق يا أمى .

ما الذى تعنيه أميرتى ؟ وقبل أن أفكر فى مئات الاحتمالات تابعت :

هذه الزيارة المفاجئة كانت ضرورية حتى أراه على حقيقته .. ذلك الخائن .. المخادع .

ـ اسمعانى .. سأوضح لكما حقيقة الأمر .

ـ الأمر واضح جدًا .. آسفة لأننا قطعنا عليكم الـ ...

ولم تستطع أميرتى إكمال الجملة أوانها لم ترد ذلك .. ثم تأبطت ذراع والدتها و ...

ـ هيا يا أمى .

ـ انتظرى يا (نادين) .. هذه إحدى مرضاى .

التفتت أميرتى لى .. يبدو إنها تحاول تفهم الأمر ولكن ..

ـ وهل هذه عيادة يا دكتور ؟!

قالتها ثم اختفت مع والدتها .. فاتجهت إلى (جميلة) .. وقلت لها :

ـ أرجوكِ .. ساعدينى فى توضيح الأمر .. أخبريهم بالحقيقة .

نظرت لي وأومأت برأسها متفهمة .. يبدو إنها سوف تساعدني .. صاحت بقوة :

ـ (نـاااادين) .

اختفت بالخارج لدقائق ثم عادت ومعها أميرتي .. كيف أقنعتها بالصعود ؟! يا لها من عبقرية .. سوف تشرح لها الأمر بالتأكيد .. ستعرف أميرتي أني مظلوم .. ستعرف الآن الحقيقة .

ـ « لم كل هذا الغضب ؟ إنه لا يحبك . »

ألم أقل لكم أنها ستعـ ... ما هذا الذي قالته تلك الـ ...؟

نظرت لها متعجبًا ثم نظرت إلى خطيبتي التي بدا عليها الغضب .. هذه اللحظات من أسوأ لحظات حياتها بالتأكيد .. أراهنكم على ذلك ، ولكن ..

لماذا قالت (جميلة) ذلك ؟ هل تريد أن ترد لي الصفعة لأني رفضت تنفيذ طلبها رفضا تاما ؟ أم أنها تدمر خطوبتي حتى تساومني بعد ذلك على إصلاحها ؟ بطريقة (اعطني الشهادة .. أشرح لخطيبتك الموضوع) .

تأملتها جيدًا .. رأيت نظراتها الحادة .. الشاردة .. المرتابة .. أشعر أنها تتنفس بصعوبة .. أراهن أنها لم تعد (جميلة) التي تريد الشهادات .. كانت شخصًا آخرًا .. أشعر أنها فعلت ما فعلته بسبب الموقف .. الموقف نفسه .

الموقف الذى نمر به الآن ..

لقد أيقظ هذا الموقف ذكرى معينة بداخلها .. ذكرى سيئة .. ربما هذه اللحظة تتشابه مع اللحظة التى اكتشفت فيها خيانة زوجها .. لم تحك لى كثيرًا عن هذا الموضوع ولم تكتب عنه أبدًا ، لكنى أستنتج ذلك الآن .. والذى أكد صحة استنتاجى أنها قالت بكل فخر :

ـ « أنا زوجته . »

* * *

أنا متأكد أن السيدة (جميلة) ليست فى حالتها الطبيعية الآن .. ربما تتقمص الآن شخصية الزوجة الثانية .. لقد استعادت ذاكرتها الموقف .. تقول كل كلمة قالتها لها تلك المرأة الأخرى ..

ماذا كان اسمها ؟ لقد أخبرتنى به .. آه .. كان اسمها (شذى) .

وعلى هذا الأساس .. تلعب خطيبتى دور (جميلة) وألعب أنا دور (قدرى المنياوى)

طليقها .. لقد فهمت موقفها الآن ولكن ..

كيف سأفسر ما قالته لخطيبتى ؟ أنا لم أنته من تفسير ما رأته بعد .

المسألة تزداد تعقيدا .. لبت السيدة (جميلة) صمتت .

أما أميرتى فنظرت لى نظرة دهشة وذهول واحتقار واستنكار و .. و ... إلخ .

كنت أخشى منذ قليل أن تفقد وعيها ، أما الآن فأخشى على قلبها الرقيق من الصدمة .. أدعو الله ألا يحدث ما أخشاه .. تشجعت أخيرًا وقلت لها :

ـ هذا كذب .. لا تصدقيها .. إنها مريضة .

لم تهتم احداهما بما قلته .. خطيبتى أوامها .. نظرت لـ (جميلة) .. رأيتها فى قمة السعادة .. إنها تستمتع كثيرًا بما تفعله .. يا إلهى .. هل من الممكن أن ..؟ لِمَ لا ؟ من يدرى ؟ ولكن .. فهل ..؟ ربما .. فى هذه الحالة أكون قد ...

يا إلهى .. هل من الممكن أن يكون ذلك الموقف القديم هو السبب فى جنون السيدة (جميلة) ؟ أى أن دفاعاتها العقلية إنهارت تمامًا بعد مشهد زوجها مع (شذى) .. لِمَ لا ؟ فأنا حتى هذه اللحظة لا أعرف متى وكيف أصبحت مجنونة .. ربما كان التاريخ هو تلك اللحظة .. ولكن ما تفعله الآن هو تكرار للتجربة المريرة التى مرت بها .. فهل سيزيد هذا جنونها وتسوء حالتها ؟ ربما .. أم أنه قد يساهم كثيرًا فى علاجها ؟ ربما .. هذا التفريغ قد يكون مفيدا جدًا .. ومن يدرى ؟ ربما تشفى تمامًا الآن .. فتخرج من عندى فى هذه الساعة سيدة أخرى تمامًا .. ويكون علاجها قد تم على يد أميرتى بفضل الله (سبحانه وتعالى) .. وتكون المعجزة قد تحققت .

هل من الممكن أن تلعب الصدفة دورا فى العلاج النفسى ؟ لابد أن أدرس هذه المسألة .

ولكن .. ربما تحدث صدمة لأميرتى .. صدمة كالتى حدثت لـ (جميلة) وجعلتها فى تلك الحالة المستحيلة ..

يا إلهى .. سيكون مصيرا مأساويا لها .. سيكون أمامى (جميلة) أخرى .. تعانى مما كانت تعانيه الأولى .. هل ..؟

فى هذا الوضع .. ستعود (جميلة) إلى جنة العقل .. وتفقد أميرتى عقلها وتسقط فى جحيم الجنون .

كنت فى صراع نفسى بين مريضتى و خطيبتى .. هل أترك السيدة (جميلة) تستكمل التفريغ ؟ قد تشفى .. ولكن ماذا عن أميرتى ؟ هل أتركها لمثل هذه الصدمة ؟

أم أنهى هذه المهزلة الآن ؟ فأكون قد ضيعت فرصة عظيمة فى علاج (جميلة)

ولكنى سأكون قد أنقذت أميرتى من صدمة عنيفة لها .

نظرت (جميلة) لأميرتى المصدومة وقالت بتشف واضح :

ـ ويحبنى أنا فقط .

لم تتفوه أميرتى ببنت شفة .. كانت مصدومة جدًا ، أما (جميلة) فمازالت تواصل التفجير .

ـ إنه لم يطلقك يا (جميلة) حتى الآن بسبب ..

صاحت (نادين) مندهشة :

ـ يطلقنى !

أما السيدة (جميلة) أكملت جملتها قائلة :

ـ .. الأطفال .

نظرت (نادين) لى متعجبة وقالت :

ـ هل لديك زوجة أخرى اسمها (جميلة) ، ولك منها أطفال ؟

أما السيدة (جميلة) قالت بهدوء وهى لا تزال متقمصة شخصية الزوجة الثانية :

ـ يقول دائمًا أن الأم ستربى أفضل من زوجة الأب .

هل توجد وسيلة لإسكات هذه السيدة ؟ كيف تعرف أميرتى أنها تتحدث بلسان (شذى) ؟ كيف تعرف أميرتى أنها ليست المقصودة ولست أنا المقصود ؟ كيف تعرف أميرتى أن الأطفال هم أطفال (قدرى المنياوى) وأن الزوجة الأخرى هى نفسها التى تتحدث الآن .. الموضوع معقد .. معقد جدًا .

لقد تقمصت السيدة (جميلة) دور الزوجة الثانية ببراعة تستحق عليه جائزة الأوسكار .. لا أعتقد أن (شذى) قامت به بنفس هذا الحماس .

نظرت إلى (نادين) .. كانت حالتها سيئة للغاية .. الصدمات تتوالى عليها .. أولاً ترى خطيبها فى أحضان أخرى ، ثم تعرف أن هذه الأخرى هى زوجته ، ثم تعرف أن هناك زوجة أخرى فى حياته ، ثم تعرف أن له أطفال منها .. أضف إلى كل هذا أنى لست مجرد خطيب والسلام .. أنا حبيبها ، وهذا يعنى أن الصدمة ستكون مضاعفة .

قالت المسكينة بصوت خرج بصعوبة :

- ولكنى .. لست .. زوجته .. الأخرى .. أنا خطيبته .. المخدوعة .

لن أسمح لهذه المهزلة بالاستمرار .. لقد حسمت المسألة .. وقبل أن أقوم بأى فعل ايجابى فوجئت بأميرتى تخلع دبلتها .. ثم تقذف بها لتستقر عند قدمى وتقول :

- لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى .

ثم خرجت من الباب وسمعت صوت والدتها .. من الواضح أنها تواسيها .. ثم لم أعد أسمع صوتهما بعد ذلك .

لقد فسخت أميرتى الخطوبة ..

لا ألومها كثيرًا على ما فعلته .. بل هو رد فعل طبيعى لما حدث .. وأنا أستحق ذلك .. لقد تركت أميرتى للوحش الهائج / (جميلة)

لتفترسها .. معتقدا أن هذا قد يساعد فى علاج الأخيرة .. ولكن ما حدث هو أنى فقدت أعز إنسان لدى .. وأخشى أن تؤثر الصدمة عليها ، أما (جميلة) فـ ...

نظرت إليها .. كانت طبيعية جدًّا .. هل من الممكن أن ..؟

كانت ابتسامتها ابتسامة هادئة ودودة .. هل يعنى هذا أنها قد شفيت .. هكذا فجأة ؟

هل حدثت المعجزة ؟

قالت لى وهى تضع ذراعيها على كتفى بدلال و تداعب شعرى بأصابعها :

ـ طلقها يا (قدرى) .. ولوانك تريد الاحتفاظ بالأطفال فتأكد أنى سأربيهم كأمهم وأفضل .

النتيجة النهاية : فقدت أميرتى و لم تشفى (جميلة) .

* * *

15 ـ جريمة قتل ..

كانت ليلة قاسية لى

وقاسية جدًا للمسكينة (نادين) .. أخشى أن .. لا .

اتصلت بها مرات عديدة لأطمئن .. ولكنهم كانوا يضعون السماعة بمجرد سماعهم صوتى .

حسنًا .. سأذهب إليها فى الصباح وأفسر لها الموضوع ..

أدعوالله أن أنجح فى ذلك وتتفهم أميرتى الموقف وتقبل عودة الدبلة إلى إصبعها .. لأنعم برؤية ابتسامتها من جديد ..

يا رب ...

* * *

طرقت الباب .. كانوا يعلمون أننى الطارق لذا لم يفتحوا .. طرقت الباب مرات عديدة .. وصحت مناديا أهل الدار لكن أهل الدار لا يرغبون فى رؤيتى .

ولكنى كنت مصرا .. أعلم أن لديهم حق فى تصرفهم ولكن لدى الحق فى إثبات براءتى .. لذا عدت أطرق الباب من جديد ..

الجيران .. يعرفوننى جيدًا ولكنهم تعجبوا من الموقف .. لماذا يطرق ذلك الطبيب النفسى / خطيب (نادين) الباب بهذه الصورة

وبهذا الإصرار ؟ تعليقاتهم التى كانوا يقولونها وكأنهم يلقون التحية لم تكن تعجبنى .. مثل :

« هل هم بالداخل ولم يسمعوا حتى الآن ؟ »

« بالتأكيد ليسوا هنا .. والا كانوا فتحوا لك يا دكتور . »

« لماذا لا يريدون أن يفتحوا لك ؟ »

« هل حدث شىء ما بينك وبين (نادين) ؟ »

« هل تنقذها من الموت مرة أخرى ؟ »

الفئة الأخيرة مازالوا يتذكرون ذلك اليوم الذى تعرضت فيه خطيبتى للموت على يد قاتل أثيم .. كان هذا بسبب حلم(*) .

بعد مرور ساعة .. تأكدت أن المشكلة أعقد مما أتصور .

* * *

الحل فى يد (جميلة) .. هى وحدها ستفسر الموضوع لخطيبتى .. لكن .. هل ستقبل القيام بذلك ؟ سوف تساومنى .. هذا إن كانت لا تزال (جميلة) .. ربما أعجبتها شخصية (شذى) فظلت فيها .. كيف سأعرف ؟ فلأنتظر .. سوف تأتى بالتأكيد .. يوم القضية اقترب .. أنا واثق أنها ستأتى من أجل الشهادة .. من أجل اقناعى .. من أجل أطفالها .. من أجل حياتها .

(*) راجع العدد الأول : حالة الحاسة السادسة .

لكن .. ماذا لو اتت ورفضت ؟ ماذا لو لم تأت ؟ حسنًا .. سوف أضطر للذهاب إلى

طليقها .. قد يغضبها هذا ولكنى مضطر .. سأشرح له ما حدث .. تقولون أنه سوف يعرف عندئذ بحالتها .. أنا متأكد أنه يعرف بها منذ زمن .. على أية حال سوف ألجأ إلى هذا الحل بعد فشل الحلول الأخرى .

وانتظرت ..

وانتظرت ..

ولكنها لم تأت ..

ربما شفيت من جنونها بعد مرور تلك الليلة .. ربما ذهبت لطبيب آخر .. ربما استطاعت الحصول على شهادة مزورة تثبت أنها بكامل قواها العقلية وهذا سيوفر عليها الكثير .

ربما مات زوجها وحلت المسألة .. ربما قتلت زوجها وأنهت هى المسألة .. ربما عادا إلى بعضهما وفرحت بالمسألة فنسيت إخبارى .. و ربما نسيت المسألة ونستنى ونسيت الأطفال وطليقها ونسيت نفسها .. بمعنى أبسط (فقدت ذاكرتها تمامًا) .

ثم جاءنى الاتصال .. فى عصر أحد الأيام .

ـ ألو .. د.(ياسين) .

ـ (جميلة) ؟

ـ نعم .. أنا (جميلة) .. (جميلة) الأم التى فقدت أطفالها للأبد .

ـ ما الذى تعنيه ؟ ما الذى حدث ؟

ـ لقد أخذ (قدرى) الأطفال .

ـ اهدئى .. واخبرينى كيف أخذهم ؟

ـ لن أستطيع الحياة بدونهم .

ـ اهدئى .. كل مشكلة لها حل .

ـ (جميلة) ستنتحر .

ـ لا .. لا تفكرى فى الانتحار .. الانتحار لا يمكن أن يكون حلا أبدًا .. لا تستسلمى .. أخبرينى أين أنت الآن .

لا تحاول منعى من الانتحار يا دكتور .. (جميلة لابد أن تموت) .

و لم أسمع صوتها بعد ذلك .

لقد وضعت السماعة ..

أتخيلها تنهض الآن وتقذف بنفسها من النافذة ..

لقد حاولت الانتحار أمامي مرات عديدة وكان لديها أطفالها .. فما الذى سيؤخرها الآن وقد فقدت أطفالها ؟

أنا لا أعرف عنوانها .. فكيف يمكننى انقاذها ؟ وحتى لو أعرف عنوانها كيف أصل إليها فى الوقت المناسب ؟ فمن الواضح أنها ستنتحر فور إنهاء مكالمتها معى .

وتوقعت أن أقرأ خبر انتحارها فى اليوم التالى .

ولكن لم يحدث ما توقعته ..

ففى اليوم التالى بحثت فى صفحة الحوادث والقضايا عن خبر انتحار ..

لم أجد .

ولكن سقطت عينى على اسم (جميلة الصقرى) ..

ورأيت اسم (قدرى المنياوى) أيضًا .

لم يكن خبر عن انتحار سيدة بسبب حزنها على فقدانها أطفالها ..

لقد كان خبر عن جريمة قتل والمتهم فيها (قدرى المنياوى) .

والقتيلة هى (جميلة الصقرى) .

وتخيلت ما حدث ..

لقد انتحرت (جميلة) .

واتهم (قدرى) المسكين فى قتلها .

* * *

16 ـ البـراءة ..

ذهبت إلى منزل أميرتى

لأشرح لها حالة (جميلة) .. السيدة التى رأتها فى شقتى .. أخبرها بمحاولاتها العديدة للانتحار .. أخبرها أن ما رأته فى شقتى هو أحدى هذه المحاولات وانني كنت أمنعها فى المشهد الذى رأتنى فيه .

أخبرها أنى لم أحب غيرها وانى لم أتزوج و لن أتزوج غيرها ..

وأعطيها الجريدة من أسفل الباب التى بها خبر عن جريمة قتل (جميلة الصقرى) .. والمتهم فيها زوجها (قدرى المنياوى) .

أخيرًا سمعت صوتها الرقيق العذب الجميل الذى حُرمت منه لقرون .. يتسلل إلى أذنى بنعومة عبر الباب .

ـ لا توجد صورة لها فى الجريدة .. كيف أعرف أنها هى التى رأيتها فى شقتك ؟

قلت لها بحزن :

ـ ألا تصدقيننى ؟

وجدتها تفتح الباب وتقول مبتسمة :

ـ المشكلة أنى أصدقك .

لن أصف لكم شعورى عندما رأيت وجهها ، فهذا سوف يستهلك مئات الصفحات .

* * *

قلت لأميرتى وأنا جالس معها وأمها تقدم لنا عصير البرتقال :

ـ الحمد لله أنكم صدقتمونى .

قالت أميرتى لتؤكد لى إقتناعها ببراءتى :

ـ أنا أثق فيك .. ولكن المشهد كان قاسيا ولا يمكن تفسيره على نحواخر .

قالت أمها بلهجة لم تعجبنى على الاطلاق :

ـ تقول أنها كانت تحاول الانتحار وانك كنت تمنعها .

ـ بالضبط .. هذا هو ما حدث .. ولقد ماتت منتحرة .. لقد اتصلت بى واخبرتنى برغبتها فى الانتحار .

قالت أميرتى :

لابد أن تبلغ الشرطة بهذا الأمر .. حتى يخرج زوجها المسكين من السجن .

ما يحيرنى أن الخبر يقول أنه زوجها .. وليس طليقها .. متى عادا إلى بعضهما ؟ لقد كانت تخبرنى أنه طلقها وانه أخذ الأطفال .. ولهذا انتحرت .

فوجئت بحماتى تقول :

ولماذا تقرر الانتحار فى شقتك ؟ ألم تجد مكانا أفضل من شقتك تنتحر فيه ؟

أجبت ببساطة :

كانت تهددنى بانتحارها .. إذا لم أعطها الشهادة التى طلبتها سوف تنتحر .

تهددك بالانتحار ؟ يا له من تهديد .

تجاهلت سخرية حماتى اللاذعة .. وقلت لأميرتى :

كل ما قالته لك لم يحدث .. لقد كانت مريضة وما رأيتيه منها كان إحدى نوبات جنونها .. حتى إنها تخيلتك نفسها ونادتك بـ (جميلة) .

نعم أتذكر ذلك .

ـ ما يحيرنى هو أنها حاولت الانتحار أمامى عشر مرات أو أكثر .. فكيف عاشت كل هذه المدة ؟ وما يحيرنى أكثر هو زوجها المتهم فى قتلها .. لماذا لم يذكر شيئًا عن جنونها أو محاولاتها المستمرة للانتحار ؟ أم أنه لا يعلم شيئًا عن هذا ؟

قالت حماتى بذكاء :

ـ ربما يخشى على سمعتها .

قلت محاولاً اخفاء ابتسامتى :

ـ إنه متهم فى جريمة قتل .. فهل تعتقدين أنه يفضل الموت شنقا على إفشاء سر جنون زوجته الميتة ؟

قالت أميرتى :

ـ و ماذا عنك ؟ هل ستخشى افشاء سر مريضتك ؟

ـ فى الحقيقة لا أود افشاء سرها .. ولكنى مضطر .. أنا بذلك أنقذ زوجها البرىء من حبل المشنقة ؟ سوف أخبرهم بمكالمتها الهاتفية الأخيرة .. واذا سألونى عن علاقتى بها سأضطر لإخبارهم أنها كانت مريضة عندى .

وبالفعل ..

ذهبت إلى النيابة وادليت بشهادتى واخبرتهم بكل شىء .

وهكذا .. نال (قدرى المنياوى) البراءة .

لم أشعر أنى خالفت شرف مهنتى بافشاء سر مريضة عندى .. بل شعرت براحة نفسية لأنى انقذت برىء بشهادتى هذه .

واعتقدت أن حالة (جميلة الصقرى) انتهت بموتها ، لكن ..

* * *

كنت خارجا من الكازينوالراقى المطل على النيل وبصحبتى (نادين) ..

طلبت منها أن تنتظرنى أمام البوابة حتى أذهب لإحضار السيارة من الركن البعيد الهادىء الذى وضعتها فيه ..

وفى اللحظة التى عبرت فيها الطريق .. كانت هناك سيارة مسرعة تتجه نحوى ..

لم أنتبه لها إلا وهى تصدمنى ، ثم ..

ـ آآآآآآآآآآآآآه

ثم سمعت صرخة (نادين) و ...

ـ « ياسين .. رد علىّ .. ياسين .. ياسين . »

17 ـ جنـون السـرعـة ..

فقدت الوعى لفترة ..

نظرت حولى .. وجدت جمهور من الناس ..

أين أنا ؟

أنا على الرصيف .. يا إلهـى .. مـا الـذى حدث ؟ رأيت وجـه (نادين) المذعورة ودموعها الدافئة تنسال علىّ .. قالت بصـوت مبحوح :

ـ الحمد لله .. الحمد لله .

وشرعت تمسح دموعها بيديها ، فسألها رجل من الواقفين :

ـ ألم تلمحى رقم السيارة ؟

ـ لا .. للأسف .

سألت وأنا أحاول النهوض بصعوبة :

ـ ما الذى حدث ؟

فأجابتنى أميرتى وهى تحاول مساعدتى :

ـ سيارة مسرعة صدمتك فوقعت على الأرض وفقدت وعيك بعدها .. هل تشعر بأى ألم ؟ هل نذهب إلى طبيب ؟

ـ لا .. لا .. أنا بخير .. ولا تنسى أنى طبيب .

قال رجل من الواقفين :

ـ هل ستحرر محضرا ؟

ـ ضد من ؟ ثانيًا .. أنا بخير .. لا تقلقوا .. وشكرًا لكم جميعًا .

ـ لا شكر على واجب .

لا أعرف ما هو الواجب الذى فعلوه بالضبط .. ولكنى رأيت أنه من الضرورى أن أشكرهم .. يكفى تعاطفهم معى .. ألا تتفق معى فى ذلك ؟

نظرت حولى .. كان عددهم كبيرا بحق .. تساءلت : كم من الوقت بقيت فاقد الوعى بالضبط ؟ نظرت إلى ساعتى .. يا إلهى .. هل بقيت بهذا الوضع كل هذا الوقت ؟

قال أحدهم وقد بدا عليه التأثر :

« جنون السرعة ! »

وعلق شخص آخر وجد أن من حقه الدستورى أن يعلق :

« شباب هذه الأيام . »

« سيارات مسرعة تخطف الأرواح . »

« لم يعد الواحد منا يطمئن على نفسه أثناء سيره على الرصيف . »

« كل شخص لديه سيارة .. يريد أن يسير بها على رقاب الجميع . »

تجاهلت تعليقاتهم المؤثرة .. وسألت (نادين) ببساطة :

ـ أين تركنا السيارة ؟

* * *

لم يكن هذا هو الحادث الوحيد الذى حدث لى .. كان هناك حادثا آخرًا ..

بعد هذا الحادث بيومين ..

تقريبًا .. نفس السيناريو .. خرجنا من الكازينو .. سيارة مسرعة ولكن ..

لم أسقط أو أصب بسوء هذه المرة .. حمدت الله .. ورأيت أن الأمر مجرد صدفة .

سألتنى أميرتى بقلق :

ـ هل أنت بخير يا (ياسين) ؟

ـ لم يحدث شيء .. لقد مرت بجوارى فقط .

ـ هذا هو ألحادث الثانى خلال أسبوع .

ـ وهل تعتبرين هذا حادث ؟ لم يحدث أى شيء .

ـ ولكن ..

ـ إنها صدفة .. هل تعتقدين أن هناك من يحاول قتلى ؟

ـ .....

ـ لا .. ليس الأمر بهذه الصورة .. وإن كان الأمر كذلك فيجب عليه تعلم القيادة أولاً لأنى أفلت منه مرتين .

ـ (ياسين) .. أرجوك .. انتبه لنفسك .

ـ اطمئنى .. أعدك أنى سأحافظ على حياتى طالما أنها غالية عندك .. ولكن الأمر كله صدفة .

وجاء الحادث الثالث سريعًا ليؤكد لى أن الأمر لم يكن صدفة أبدًا .

حدث ذلك فى نفس اليوم .. كنت خارجا من عيادتى وكانت الساعة التاسعة مساءا .

كنت أفكر فى مسألة السيارات المسرعة التى تريد النيل منى .. وقررت أن أنتبه جيدًا عند خروجى من الكازينو فى لقائى القادم بـ (نادين) .. فربما تتكرر المحاولة .

لكن .. لم أكن أعلم أن المحاولة ستتكرر هذه المرة عند خروجى من عيادتى .

لقد اعتدت أن تحدث هذه الأمور فى وقت معين وفى ساعة معينة .. كيف أتوقع مثل هذه التغييرات ؟

سيارة سريعة كانت تنتظرى .. رأى قائدها وجهى .. تأكد أنه أنا ، ثم ..

رأيت السيارة المسرعة تكشر عن أنيابها .. تتجه نحوى .. وبسرعة البرق كانت تصدمنى .. شعرت بجسدى يطير فى الهواء .. ثم يسقط بعدها على الأرض ، وشعور بأن جسمى خرج لتوه من مفرمة ..

ـ آآآآآآآآآآآآآآه

آلام كثيرة فى أنحاء عديدة من جسدى .. لم أستطع التحرك .. رأيت من يتجه نحوى .. لا أستطيع رؤية وجهه .. الإضاءة خلفه .

لوان هذا الشخص هو نفسه قائد السيارة وقد ترجل منها فهذا يعنى أنه آت للتأكد من موتى أو ...

ليكمل مهمته .

* * *

ولكنى ـ فى المستشفى ..

كانت الساعة الخامسة مساءا عندما فتحت عينى ..

أدركت أننى داخل غرفة فى مستشفى .. أعرف هذه الغرف جيدًا .. أرقد الآن على أحد أسرتها البيضاء .. حاولت تذكر ما حدث .. آه ..

العيادة .. السيارة .. الأرض .. الرجل القادم .. الإضاءة خلفه .

وجودى هنا يعنى أن الرجل القادم لم يكن القاتل .. من الذى أحضرنى إلى هنا ؟

نظرت حولى .. من هذه ؟ يا إلهى .. إنها هى ..

(نادين) ..

ملاكى الحارس ..

كانت تجلس على مقعد وقد غلبها النوم .

ـ « الحمد لله على سلامتك يا ولدى »

استدرت لأرى المتحدثة .. لقد عرفتها من صوتها .. إنها ..

ـ أنت هنا ؟!

ـ لا تحرك جسدك .. يلزمك الراحة الآن يا ولدى .

كانت حماتى .. أم أميرتى .. سألتها هامسا حتى لا أوقظ الملاك :

ـ ما الذى حدث ؟

ـ سيارة مسرعة .. منهم لله الذين كانوا السبب .

ـ من الذى أحضرنى إلى هنا ؟

ـ الممرض .. لقد خرج بعدك مباشرة من العيادة .. رآك .. فنقلك بسيارتك إلى المستشفى ثم اتصل بنا .

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ الخامسة .

ـ الحادث كان بالأمس أم ... ؟

ـ « بالأمس . »

قالتها أميرتى ثم نهضت وهى تنظر لى بعينيها الجميلتين الذابلتين من الإرهاق ثم ..

ـ حمدا لله على سلامتك .. أهكذا تقلقنى عليك ؟ ألم تعدنى أنك ستحافظ على نفسك ؟

ـ فعلاً .. هذا ما وعـ ...

قاطعتنى بلمسة من أصابعها الرقيقة على فمى و ...

ـ لا ترهق نفسك بالحديث .

احتضنت أصابعها الرقيقة بأصابعى وأبعدتها عن فمى وقلت :

ـ لكن .. يبدو عليك الإرهاق .

قالت والدتها :

ـ لقد أصرت على البقاء هنا حتى تطمئن عليك .. برغم العناية الشديدة التى توفرها المستشفى لكنها أصرت على رعايتك بنفسها .

يا لرقة قلبها ..

يا لحنانها ونبل أخلاقها ..

لقد أحسنت اختيار شريكة حياتى .

قلت لها وقد تأثرت بما فعلته من أجلى :

ـ حسنًا .. لقد أصبحت بخير الآن .. يمكنك العودة إلى المنزل .

ـ هل تطردنى ؟

سعدت لرؤية ابتسامتها .. فقلت لها مازحًا :

ـ نعم .. لقد أرهقت نفسك جدًا .. وأنا لا أستحق كل هذا الاهتمام .

ـ لا تقل هذا .

ـ هيا يا (نادين) .. أنت تحتاجين إلى يوم كامل من النوم .

شجعتها أمها قائلة :

ـ هيا يا بنيتي .. لقد اطمئننا عليه .

ـ ولكن ..

هنا دخل الطبيب وعلى وجهه ابتسامة كبيرة وقال :

ـ كيف حال مريضنا الطبيب ؟

وقبل أن أجيب .. علق ساخرًا :

ـ كم مرة يمكننا أن نسأل مثل هذا السؤال ؟!

ثم دخل طبيب آخر وقال :

ـ هل مريضا الطبيب جاهز لأخذ أقواله ؟

لماذا أشعر أنهم فرحين بهذا الوضع ؟!.. على أية حال أجبت باقتضاب :

ـ جاهز .

دخل الضابط بعدها لأخذ أقوالى .. وطلب من (نادين) وأمها تركنا وحدنا ..

وبعد خروجهما سألنى عن ..

* * *

عندما سألنى الضابط :

ـ هل لمحت أرقام السيارة التى صدمتك ؟

أجبته قائلاً :

ـ لا .

ولكنى لمحتها وحفظتها جيدًا .

وفور خروجى من المستشفى قمت بمشوار صغير عرفت من خلاله اسم قائد السيارة ..

وعرفت عنوان منزله أيضًا ..

* * *

19 ـ غمـــوض ..

ذهبت إلى العنوان ..

وهناك لمحت السيارة .. السيارة التى كادت أن تقتلنى ..

صعدت الدرج إلى شقة صاحبة السيارة ..

طرقت الباب مرات عديدة حتى فتحت لى .. نظرت لى وقالت مندهشة :

ـ أنت ؟!

صحت قائلاً بغضب :

ـ نعم .. أنا .. هل اعتقدتِ أننى مت ؟

تصنعت الدهشة وسألتنى :

ـ لماذا تقول هذا ؟

ـ أنت تعلمين .

ـ أعلم ماذا ؟

لا تحاولى إنكار أنك حاولتِ قتلى .

ـ لا أعلم ما الذى تتحدث عنه !

ـ اسمك (ثريا الصقرى) .. هل أنت أخت (جميلة الصقرى) ؟

أجابتنى بمنتهى البرود والثقة :

ـ نعم .. أختها ، ولكنى لا أعرفك ولم أحاول قتلك .

* * *

بعد محاصرتى لها بالأدلة والبراهين مع لهجة تهديد بإبلاغ الشرطة .. اعترفت أخيرًا :

أنا لم أرد قتلك .. كنت أحاول تخويفك فقط .

يا سلام .. ولنفترض .. لماذا فعلت هذا ؟

حتى تسحب شهادتك وتنفى ما قلته فى حق أختى .

ـ وما الذى قلته ولم يعجبك ؟

ـ قلت عن أختى أنها مجنونة .

ـ هى بالفعل مجنونة .

ظهر الغضب عليها وقالت :

ـ وقلت أيضًا أنها حاولت الانتحار مرات عديدة .

ـ هذا ما حدث بالفعل .

ثم قلت متعجبًا :

ـ ولكن .. أهذه هى الأسباب التى دفعتك لمحاولة قتلى ؟

قالت بغضب :

ـ بسبب ما قلته حصل قاتل أختى على البراءة .

ـ هل تعتقدين أن زوجها قتلها ؟

ـ أنا متأكدة من ذلك .. لأن أختى لم تفكر أبدًا فى الانتحار .. لذا لن تفكر أبدًا فى تناول كل هذه الكمية من الحبوب المنومة .. من الذى وضعها لها فى كوب الماء ؟ زوجها بالطبع .. لقد أراد أن يبدو موتها كانتحار أمام الجميع .

ـ ولماذا يقتلها ؟

ـ ليرثها ويتزوج من أخرى .. الصورة واضحة جدًّا .. جريمة قتل .. القاتل معروف .. الدافع موجود .. كل شىء كان يسير بصورة طبيعية والمجرم كان سينال عقابه .. حتى جئت أنت .. جئت لتقلب كل الأمور .

ـ قد يكون هناك دافع .. لكن .. هل تعتقدين أنه أعادها إلى عصمته لكى يقتلها ؟

ـ ما الذى تقوله ؟! لم يطلق (قدرى) أختى أبدًا .

ـ لا .. أنا متأكد .. لقد أخبرتنى بنفسها أنه طلقها .. يبدو إنها لم ترد إخبارك بذلك .

ـ مستحيل .. لم يحدث هذا أبدًا .. لوانه طلقها لكنت أول من يعرف .

ـ ربما لم ترد إخبارك .. ولكن الطلاق حدث و لهذا تدهورت حالتها .

ـ تدهورت حالتها ! ما الذى تعنيه ؟ هل كانت أختى مريضة حقًا عندك ؟

ـ ليست مريضة فقط .. بل مريضة جدًا .. لقد كان لديها قائمة أمراض .

قالت معترضة :

ـ لا أصدق هذا .

ـ أنا الذى لا أصدق إنكارك هذه الحقائق .. لقد كانت (جميلة) أشجع منك .. لقد اعترفت لى بجنونها وكانت تسعى لعلاج نفسها حتى تستطيع ربح القضية .

ـ أى قضية ؟

بيدوان هذه السيدة كانت تعيش فى كوكب آخر .. صحت مندهشا :

ـ ألا تعلمين بأمر القضية أيضًا ؟ القضية التى رفعها (قدرى) من أجل حضانة الأطفال .. وكان يمكن أن يستغل مسألة جنونها لكى ..

قاطعتنى قائلة وفى عينيها نظرات غامضة :

ـ مهلا يا دكتور .. هناك سوء فهم بالتأكيد .

ـ ما الذى تعنيه ؟

صمتت للحظات .. تدير الأمر فى رأسها .. ثم قالت وعيناها شاردتان :

ـ أعنى أنك فى النيابة عندما أدليت بشهادتك وقلت أن (جميلة) مجنونة وأنها حاولت الانتحار كثيرًا .. لم تكن تقصد (جميلة) أختى .. كنت تقصد سيدة أخرى .

ـ ماذا ؟

ـ لأنى أختى ليست مجنونة ، ولم تفكر فى الانتحار أبدًا .. والنقطة الأهم هى أن أختى لم يكن لديها أطفال .

ما الذى تقوله هذه السيدة ؟ لم يكن لدى (جميلة) أطفال ! لو ان ذلك صحيحا لماذا جاءتنى العيادة إذن ؟ ولماذا طلبت منى الشهادة مرارا ؟ ولماذا حاولت علاج نفسها ؟ ولماذا كل هذه الجلسات الطويلة ؟ قد نقبل احتمال أن أختها (ثريا) لم تعلم شيئًا عن طلاقها أو عن القضية .. لكن هل يمكن ألا تعلم شيئًا عن مسألة الأطفال ؟ بالتأكيد كانت ستعلم .. هذه الأخبار الجميلة تنتشر بسهولة .. سألتها :

ـ ألا تعلمين أن أختك أنجبت ؟

قاطعتنى قائلة بغضب :

ـ أختى لم تنجب أبدًا يا دكتور .

ـ ..... !

ـ لو تريد التأكد يمكنك أن تذهب لزوجها وتسأله أواتصل به الآن وتأكد بنفسك .

ـ أيعنى هذا أن ...

لم أستطع إكمال الجملة وفكرت ..

هل من الممكن أن تكون سيدة أخرى هى التى جاءتنى العيادة ؟ سيدة أخرى لم تمت .. مازالت مطلقة وتريد إثبات عدم جنونها للاحتفاظ بأطفالها .. هل ..؟ ولكن .. لا يمكن لأنها ..

ـ لقد قالت لى أنها (جميلة الصقرى) وأنها زوجة (قدرى المنياوى) .. إنها بالتأكيد أختك .

نظرت لى السيدة (ثريا) .. فكرت قليلاً ثم قالت بكل بساطة :

ـ تشابه أسماء .

ما الذى تقوله هذه السيدة ؟! لوافترضنا أن هناك سيدة أخرى اسمها (جميلة الصقرى) فهل يتصادف أيضًا أن زوجها اسمه (قدرى المنياوى) .. مستحيل .. هذه المصادفات لا تحدث إلا فى الأفلام .. بل .. ستكون غير مقبولة فى الأفلام أيضًا .. ثم تذكرت شيئًا ..

ـ الصور .

ـ أى صور ؟

ـ لقد أرتنى يومًا صورة زوجها واؤكد لك أنه هو نفسه (قدرى) الذى رأيته فى النيابة .. ما قولك الآن ؟ هل ستفترضى تشابه الوجوه أيضًا ؟ أم ستفترضى أن (قدرى) تزوج امرأتان .. لهما نفس الاسم .. واحدة هى أختك لم ينجب منها .. وواحدة أخرى هى التى جاءتنى العيادة وأنجب منها .

صمتت للحظات .. كانت تفكر فى حل عبقرى لهذه المعضلة .. قالت :

ـ ربما هناك سيدة أخرى ادعت أنها أختى لغرض ما .. كيف تعرف أن التى جاءتك اسمها (جميلة) فعلاً ؟ هل رأيت بطاقتها ؟

ـ لا طبعًا .. ولكن لِمَ لا تقولين أنها أختك وأنها كانت مجنونة بالفعل ومن أعراض جنونها أنها تخيلت أنها مطلقة .. وربما كانت مطلقة بالفعل ولم ترد إخبارك .

ـ أولاً : أختى لم تكن مجنونة .. ثانيًا : كيف تثبت لى أن التى جاءتك العيادة هى أختى ؟ ثالثًا : كيف تثبت أنها قد طلقت ؟ رابعًا : كيف تثبت أنها أنجبت ؟

قلت ساخرًا :

ـ لا أستبعد أن تقولى لى « كيف تثبت أنك د. (ياسين العوضى) ؟ »

أكملت جملتها قائلة بهدوء :

وأخيرًا .. كيف تثبت لى لوانها حقًّا أختى أنها كانت مجنونة ؟

ـ لوافترضنا أن أختك لم تكن مجنونة فلماذا جاءتنى العيادة وادعت الجنون ؟

ـ ولماذا تفترض أنها كانت أختى ؟ كيف تثبت لى أنها كانت أختى ؟

ـ للأسف لم أسجل جلساتها .. أما الخواطر التى كتبتها فقد أخذتها مع رسومها .

مرت لحظات من الصمت ثم سألتها :

ـ هل لديك صورة لأختك ؟

الصورة ! قد تبدو دليلا حاسما لكنها ليست كذلك .. فلوانى رأيت صورة أختها .. وتأكدت أنها هى المرأة التى جاءتنى العيادة .. ستثبت الصورة وجهة نظرى وتنفى احتمال تشابه الأسماء .. لكن .. لوان هناك سيدة أخرى ادعت أنها (جميلة) فبالتأكيد كانت ستحرص على أن تبدو مثلها فى الشكل .. إذن الصورة لن تؤكد شيئًا .. لكن ..

لو أن صورة أختها لا تشبه المرأة التى جاءتنى العيادة فهذا يعنى أنى أخطأت ونعود إلى نظرية تشابه الأسماء أونظرية السيدة الأخرى .. لكن لوان (جميلة) هى التى جاءتنى العيادة فهل ستأتى بوجهها الحقيقى ؟ لا تنس عزيزى القارىء أنها كانت تستخدم أدوات التجميل بكثرة .. كنوع من التنكر .. حتى لا يعلم

أحد بمجيئها لعيادة طبيب نفسى .. من أدرانى أننى طيلة هذه الجلسات كنت أرى وجهها الحقيقى ؟

وربما .. لا تعطينى السيدة (ثريا) صورة أختها الحقيقية .. لكى تثبت لى وجهة نظرها .. من يدرى ؟ ربما ترينى صورة ابنة عم زوجة خالها وتقول أنها أختها فأصبح وقتها كالمصعوق (ليست هى .. ليست هى) .. فتقول لى ببراءة الذئاب (ألم أقل لك أن المسألة تشابه أسماء ؟)

للأسف الاحتمالات كثيرة .. كيف أصل إلى الحقيقة ؟

قالت لى بحسرة :

ـ ليس لدى الآن للأسف .. لكنى سأبحث لك عن واحدة .. هناك صورة لها وهى فى الثانوية العامة .. هل تصلح ؟

لم أرد .. فكرت قليلاً .. المسألة محيرة .. الصورة تزدادا غموضا .

من التى جاءتنى العيادة ؟ هل هى (جميلة) ؟ هل كانت حالتها سيئة للدرجة التى تتخيل فيها أن زوجها طلقها وتتخيل أن لديها أطفال تريد الاحتفاظ بهم ؟

أم أنها كانت طبيعية وادعت الجنون أمامى .. لكن لماذا ؟

أم أنها سيدة أخرى تقمصت الدور ؟ وهناك احتمال آخر ..

قد تكون السيدة (ثريا) كاذبة أو ...

مجنونة كأختها .

هذا يفسر كثير من الأمور الغامضة ..

سنفترض أن كل ما قالته الآن أوهام وتخيلات ..

لذا سنعود للقول بأن أختها كانت مجنونة بالفعل .. مطلقة .. لديها أطفال .. أرادت الاحتفاظ بهم .. ثم عادت لزوجها لذا لم أرها بعد ذلك .. ثم أخذ زوجها الأطفال منها فقررت الانتحار واتصلت بي .. ثم انتحرت .. أدليت بشهادتي .. قلت أنها مجنونة وحاولت الانتحار كثيرًا .. ثم خرج زوجها البرىء بسبب شهادتي .. بهذه الطريقة تكون الأمور مفهومة على الأقل .

لذا سأفترض أن ما قالته السيدة (ثريا) أكاذيب .. حتى تظهر الحقيقة .

ويزول أى غموض .

* * *

20 ـ الـــزوج !

ـ « أهلاً د. (ياسين) . »

هكذا استقبلنى (قدرى المنياوى) فى شقته مع كثير من الأحضان .. ثم أكمل بفرحة غامرة وابتسامة كبيرة تلتهم وجهه :

ـ لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور .. أنت أنقذت حياتى .

ثم قال وهو يتقدمنى إلى الصالة :

ـ كنت أنوى زيارتك .. لقد أردت أن أشكرك بنفسى على شهادتك العظيمة .

جلسنا فى الصالة .. صالة الشقة التى شهدت اللحظات الأخيرة من حياة (جميلة) .

سألته :

ـ هل هى انتحرت هنا ؟ فى هذه الصالة ؟

بدا عليه الحزن وهو يومىء برأسه إيجابا فسألته وأنا أتأمل نظراته :

ـ هل هى انتحرت فعلاً ؟

لم يرد .. ابتسم فى غموض .. هذا يؤكد صدق نظريتى .

عدت أكرر سؤالى :

ـ هل هى انتحرت فعلاً ؟

نهض واتجه إلى الـ ... أعتقد المطبخ .. وقال بمودة باردة :

ـ لم تخبرنى يا دكتور .. هل تحب الشاى أم القهوة ؟ أم تحب مشروبا باردا ؟ أم تود أن أحضر لك بعض الفاكهة ؟ لدى هنا أجود ...

قاطعته قائلاً وأنا أضع يدى على كتفه لأمنعه من الـ ....

ـ لم تجب سؤالى .

التفت إلىّ وأنزل يدى بعنف وقال بنظرات حادة :

ـ ما الذى تريده بالضبط .. يا دكتور ؟

ـ أريد الحقيقة .

ـ أى حقيقة ؟

ـ هل كانت زوجتك مجنونة ؟

ـ أنت قلت أنها كانت مجنونة .. ولهذا حصلت على البراءة .

تحليت بالصبر والهدوء وقلت :

ـ أنا أسألك عن رأيك أنت فيها .

ـ أنت أدرى منى بصفتك طبيب نفسى .

لم أتكلم .. فقط أشرت بإصبعى فى إلحاح ناحيته ففهم أنى أصر على معرفة رأيه ، فقال وهو يطلق تنهيدة طويلة :

ـ حسنًا .. أنا لم أرى منها خلال حياتنا الزوجية أى تصرف غير طبيعى .. كانت انسانة عادية جدًا .. تفرح .. تحزن .. تغضب .. تثور .. تخاف .. تضحك .. تبكى مثل أى إنسان .

أخيرًا عرفت الحقيقة .. يا إلهى .. لقد اتهمت سيدة طبيعية بالجنون .. سيدة لم تعد فى دنيانا الآن .. سيدة لا تستطيع الدفاع عن نفسها .. سيدة كانت تدعى (جميلة الصقرى) .. السؤال الآن : من هى السيدة التى جاءتنى العيادة وتظاهرت بالجنون أمامى وادعت أنها (جميلة) ؟

قال (قدرى) وهو يحضر قلما ودفتر شيكات :

ـ ما المبلغ الذى تريده يا دكتور ؟

هل يريد إنهاء الموضوع بهذه السرعة ؟ هل يريد أن يشترى صمتى ؟ هل يعنى هذا أنه الـ ...

نظرت له وقلت ساخرًا :

ـ لماذا ؟ هل تقدم هنا شيكات بدلا من المشروبات ؟ إن هذا يشجع على زيارتك كثيرًا .

نظر لى وقال بخبث وهو يداعب القلم :

ـ أنت تعلم جيدًا لماذا أدفع لك هذا المبلغ .

قلت ببساطة مدعيا الجهل :

ـ لو اننى أعلم لما سألت .

ترك القلم وقال بهدوء :

ـ حسنًا .. أتريد اللعب بأوراق مكشوفة ؟ هذا المبلغ نظير شهادتك .. ولقد زرتنى اليوم من أجله .. لا أعتقد أن هناك سبب آخر .

اكتشفت الآن أننى لم أكن أدعى الجهل .. الحمد لله أنى سألت .. لقد اعتقدت أنه سيقول أن هذا المبلغ نظير صمتى .. ليس نظير تصريحى .

قلت له وقد نفذ صبرى :

ـ هذا يعنى أنك تعترف أن شهادتى زور .. لأنه ببساطة لا يمكنك أن تدفع لى إلا إذا كانت كذلك .

قال لى وقد ظهر عليه الضيق والضجر :

ـ ما الذى تريد قوله يا دكتور ؟ أنا وأنت نعلم جيدًا أنها شهادة زور .. لكنها شهادة أنقذتنى من حبل المشنقة .

ـ إذن أنت تعترف .

ـ أعترف بماذا ؟

ـ تعترف بأنك قتلتها .

نهض من مكانه وصاح غاضبًا ملوحًا بيديه :

ـ لا .. أنا لم أقل ذلك .

ـ ألم تقل أنى شهدت زور .. وأنقذتك من حبل المشنقة ؟

ـ نعم .. أنقذتنى من حبل المشنقة لأنى كنت متهما بقتلها والأدلة كلها ضدى .. شهادتك الزور هى التى أنقذتنى .

ـ من الذى قتلها إذن ؟

ـ لا أعلم .. ولكنى لم أقتلها .. ربما ماتت منتحرة .. ألم تقل ذلك فى النيابة ؟

ـ ألم نتفق أن شهادتى زور ؟!

أجاب بغموض :

ـ أنت أدرى .

الأمر يزداد تعقيدًا .. هل يكذب أم يقول الحقيقة ؟ لم أعد أدرى .. سألته :

ـ من هى السيدة التى جاءتنى العيادة وقالت أنها زوجتك ؟

ظهرت عليه الحيرة وقال :

ـ ما هذا السؤال الغريب ؟ ألم تقل الآن أنها قالت لك أنها زوجتى ؟

لوانى أملك مصل الحقيقة ..! سألته :

ـ هل يمكننى أن أرى صورة لزوجتك ؟

ـ حسنًا .. عندى صورا كثيرة لها .. ومنهم صورة حديثة جدًّا .

واختفى فى الداخل للحظات ثم عاد وهو يحمل ألبوم الصور وقال وهو يفتحه :

ـ ها هى .

تأملت الوجه جيدًا ..

هذا الوجه ليس وجه السيدة التى جاءتنى العيادة .. ربما تشبهها لكنها ليست هى .. هذا الوجه لم أره من قبل ..

أنا متأكد .

* * *

أشرت إلى الصورة وقلت :

ـ هل هذه صورة زوجتك ؟

ـ نعم .. إنها (جميلة) .. رحمها الله .

ـ هل أنت متأكد أن هذه صورة زوجتك ؟

كان سؤالا سخيفا .. لكنى لم أجد سؤالاً آخرًا .. تابعت قائلاً :

ـ هذه ليست (جميلة) التى جاءتنى العيادة ، وقالت أنها زوجتك .

قال لى وهو ينظر لى نظرة لم تعجبنى على الإطلاق :

ـ دكتور .. كف عن هذه الألاعيب .. ألم نتفق على اللعب بأوراق مكشوفة ؟

ـ ما الذى تعنيه ؟

ابتسم ابتسامة خبيثة .. ثم قال :

ـ أعنى أن خطتك كانت عبقرية .. أنقذتنى من حبل المشنقة .. لذا سوف أدفع لك المبلغ الذى تريده .. أنا مدين لك بالكثير .. أنا مدين لك بحياتى .

قلت مندهشا .. لوان هذا ليس وقت مناسبا للدهشة فمتى أندهش إذن ؟!

ـ خطتى أنا كانت عبقرية ؟! هل أنا من وضع خطة التخلص من (جميلة) ؟

صاح غاضبًا مرة أخرى :

ـ يا دكتور .. أنا لم أقتل (جميلة) .. ولم أخطط لموتها .

قاطعته قائلاً :

ـ لقد وضعت خطة عبقرية .. لماذا تنكر ذلك ؟ لقد اعترفت لى أنها كانت طبيعية جدًا.. واعترفت أننى شهدت زورا .. بل وأبديت استعدادك التام لدفع أى مبلغ أريده .. لقد اعترفت بأشياء خطيرة .. لماذا لا تعترف أيضًا بأنك من وضع هذه الخطة ونفذها ؟

سألنى وبراءة الذئاب فى عينيه :

ـ أى خطة ؟

الصبر ! الصبر !

هل أنا مضطر أن أشرح له خطته التى وضعها بنفسه لكى يعترف بها ؟ قلت له :

ـ لقد اتفقت مع سيدة أن تأتى لعيادتى ، وتنتحل شخصية زوجتك ثم تدعى الجنون أمامى .. وتحاول الانتحار أكثر من مرة .. ثم يأتى يوم التنفيذ .. تطلب من هذه السيدة أن تتصل بى وتخبرنى أنها ستنتحر .. وفى نفس الوقت تنفذ أنت جريمتك وتقتل (جميلة) الحقيقية .. ثم يأتى دورى .. واشهد أنها كانت مجنونة وانها حاولت الانتحار كثيرًا وانها اتصلت بى يوم موتها لتقول لى أنها ستنـ ...

قاطعنى قائلاً :

ـ ما هذا الفيلم الذى تحكيه ؟

ـ أنا لا أحكى أى أفلام .

ضحك قائلاً :

لا .. هذا فيلم .. قام ببطولته (محمود ياسين) و(نيللى) .. أعتقد كان اسمه (الوهم).

كتمت غيظى وقلت :

ـ لماذا لا تعترف بجريمتك ؟

ـ حسنًا .. اسمعنى جيدًا يا دكتور .. أنا لا أعلم أى شىء عن قصة الفيلم الذى حكيته الآن .. لكن ما أعلمه جيدًا ويجب أن تعلمه أنت أيضًا هو أنى لم أقتل زوجتى .

ـ وماذا عن السيدة التى جاءتنى العيادة ؟

ـ لا أعلم عنها شيئًا .. لا أعلم إن كانت زوجتى أم لا .. أنت الذى رأيتها وليس أنا .

قلت له محاولاً تشجيعه على الاعتراف :

ـ إن خطتك كانت عبقرية بحق .. ولقد ..

قاطعنى قائلاً :

ـ أنا لم أخطط لأى شيىء .. خطتك يا دكتور هى العبقرية بحق .

ـ خطتى أنا ! للمرة الثانية تقول (خطتى) .

ـ نعم .. خطتك العبقرية .. تذهب لرجل متهم فى قتل زوجته وتشهد بأن زوجته كانت مجنونة وانك كنت تعالجها وأنك منعتها من الانتحار مرارا .. وبهذه الشهادة ينال الزوج البراءة ، ثم تذهب إليه بعد ذلك لتطالبه بثمن شهادتك .. يا لها من خطة .

ـ ماذا ؟

ـ كانت خطة عبقرية بحق .. يبدو أنك تفعلها كثيرًا .

ـ ما الذى تقوله ؟

نظر لى وقال بلهجة خبيثة :

ـ ألم تأتى اليوم لتطالبنى بثمن شهادتك ؟

صحت غاضبًا :

ـ أنا لا أسمح لك .

ـ لماذا تنكر ؟ ألم تشهد أن زوجتى كانت مجنونة رغم أنها لم تكن كذلك ؟

ـ نعم .. شهدت ولكنى لم أكن أعلم أن زوجتك ليست هى السيدة التي جاءتنى العيادة .. واعتقدت أنك لم تقتلها وانها انتحرت فعلاً فأردت إنقاذك من حبل المشنقة .

ـ ولقد أنقذتنى بالفعل وانا مستعد لدفع أى مبلغ تطلـ ...

قاطعته قائلاً :

ـ هل لديك أطفال ؟

ـ نعم .

ـ أسمائهم ؟

ـ (جمال) و(جنات) .

صحت مندهشا :

ـ لماذا أخبرتنى (ثريا) أن (جميلة) لم تنجب ؟

ـ تقصد (ثريا الصغرى) ؟

ـ نعم .. لقد أنكرت تمامًا وجود أطفا ...

قاطعنى قائلاً :

ـ (ثريا) لم تكذب .. (جميلة) لم تنجب فعلاً .. إن (جمال) و(جنات) من زوجتى الأولى .

زوجتك الأولى ؟

نعم .

ماذا كان اسمها ؟

(شذى) .

هل يمكن أن أرى صورة لها ؟

غاب (قدرى) فى الداخل لدقيقة ثم عاد معه صورة (شذى) .. نظرت إلى الصورة ونظرت إليه وقلت بهدوء :

الآن عرفت من هى السيدة التى جاءتنى العيادة وادعت أنها (جميلة) .

21 ـ الجمال القاتل ..

اسمها (شذى الجندى) .

سنها .. أعتقد أنها فى الخامسة والثلاثين تقريبًا .. وبالنسبة لوصفها .. سأكتفى بقول أنها جميلة كما قلت من قبل وسأترك الباقى لخيال القارىء .

هذه السيدة تعانى من أمراض نفسية وعقلية عديدة و(قدرى المنياوى) يعلم ذلك جيدًا ولكن جمالها سلب عقله وقلبه ، فقرر الزواج منها رغم كل شىء .

وأستمر الزواج لسنوات عديدة .. وانجبا (جمال) و(جنات) .. ولكن ..

مع الأيام لم يعد (قدرى) مستعدا لتحمل المزيد من جنونها ، فقام بتطليقها .

أما الأطفال .. فبرغم صغر سنهم قررت المحكمة إعطاء حق حضانتهم للأب نظرا لجنون الأم .. وهكذا صارت (شذى) وحيدة بلا زوج أواطفال .. وهذا الأمر زاد من جنونها .. ورغم جنونها هذا لم يرضى (قدرى) إدخالها المستشفى .

ولقد تزوج من أخرى ..

(جميلة الصقرى) .. أربعون عاما .. أرملة .. وجدها مناسبة له فتزوجها .

أحبت (جميلة) الأطفال جدًا ولأنها لا تستطيع الإنجاب قررت تربيتهم واعتبرتهم أبنائها .. وعاشت فى سعادة مع زوجها .. حتى يوم موتها .. أوبمعنى أدق يوم مقتلها .

(شذى الجندى) الزوجة الأولى .. خططت للعودة إلى (قدرى) واطفالها .. وفى سبيل تحقيق ذلك قررت التخلص من (جميلة) .. الزوجة الثانية .

خططت لقتلها و لكنها خشيت أن يُتهم (قدرى) فى هذه الجريمة .. لذا خططت لجعل الجريمة تبدوكأنها انتحار .. انتحار مختلة عقليًا .

الخطة تبدأ بانتحالها شخصية (جميلة) وادعاء الجنون أمامى .. وتنتهى باليوم الذى تخبرنى فيه برغبتها الملحة فى الانتحار .. ثم الذهاب بعد ذلك لقتل (جميلة) بنفسها .

دورى فى خطتها .. ليس علاجها .. وانما يقتصر على الاعتقاد بأنها (جميلة الصقرى) وانها مجنونة وانها تعشق الانتحار كثيرًا .. وينتهى دورى عندما أقول ذلك فى التحقيق .

قد تبدو خطتها عبقرية محكمة من الوهلة الأولى .. لكنها ليست كذلك أبدًا .

فربما لا أعلم بموت (جميلة) وهكذا لن أذهب لتبرئة طليقها من تهمة القتل .

وربما أعلم أن التى جاءتنى العيادة ليست (جميلة الصغرى) .. سواء عن طريق رؤية صورتها منشورة بجوار الخبر فى الجريدة أوبأى طرق أخرى .. وطبعًا فى هذه الحالة سأدرك الفخ الذى نصب لى .. وأفهم الخدعة .

وكان بإمكانها تجنب ذلك بالتنكر الجيد لتكون مثل (جميلة) .. لكنها لم تفعل .. لقد اعتمدت على ذكر الاسم أمامى واعتقادها بأنى لن أرى صورة (جميلة) الأصلية .

على أى حال .. قمت بتبليغ الشرطة .

وكان معى (قدرى) يساعدنى فى تفسير الموضوع و توضيح الصورة .

وهناك .. فى شقة (شذى الجندى) .. وبحضور رجال الشرطة ..

وجدت كتب كثيرة فى (علم النفس) ..

عرفت الآن المصدر الذى كتبت منه الخواطر وسيناريوالدور الذى مثلته أمامى .

ووجدت أيضًا الخواطر نفسها التى كتبتها لتقنعنى بجنونها .. الغريب أنها كانت مجنونة بالفعل .. أى أنها لم تكن فى احتياج لادعاء كل هذا الجنون .

ووجدنا فى دولابها .. نفس نوع الحبوب التى استخدمتها فى تنفيذ جريمتها ..

وبمطابقة بصماتها مع البصمات الموجودة على الكوب الذى شربت منه (جميلة) قبل موتها مباشرة .. تأكدنا أنها هى صاحبة البصمات المجهولة على الكوب .

أضف إلى هذا أنها كتبت فى مذكراتها عن رغبتها الشديدة فى التخلص من (جميلة) و ذكرت الخطة العبقرية التى رسمتها ونفذتها .. حتى إنها ذكرت مكالمتها الأخيرة ثم شرحت بالتفصيل كيفية تنفيذ الجريمة .. زيارتها لـ (جميلة الصغرى) فى منزلها .. ثم جلوسها معها .. ثم وضعها للحبوب المنومة فى كوب الأخيرة دون أن تدرى .

كل شىء صار واضحًا ومفهومًا ..

وهكذا جاء الأمر بالقبض على القاتلة .. واعتقدت أن الموضوع انتهى لأنى لم أكن أعلم بما سيحدث فى اليوم التالى .

* * *

كنت جالسا مع خطيبتى (نادين) فى ذلك الكازينو الراقى المطل على النيل ..

كنا نتحدث فى مواضيع غاية فى الأهمية والخطورة على رأسها اختيار لون طلاء الشقة .. و لم يخلو حديثنا من المرح والضحكات الصافية العالية .

وكان الجو جميلاً .. رائعًا .. مذهلاً .. بكل المقاييس ، ولكن ..

كل هذا تغير فجأة .. توقفت أميرتى عن التحدث والضحك وركزت بصرها على نقطة ما خلفى .. اختفت ابتسامتها تمامًا وظهر عليها الغضب ونهضت من مكانها وصاحت بصوت عال جدًا سمعه جميع سكان الأرض :

ـ يا خائن .. يا مخادع .

ثم شرعت فى خلع دبلتها للمرة الـ ...

ـ تخدعنى وتقول أنها ماتت .. تكذب علىّ لتنقذ نفسك .

تحاول خلع الدبلة وأنا أجلس كالمصعوق .. لا أفهم شيئًا .. ما سر هذا التحول ؟

ـ (نادين) .

ـ لا تنطق اسمى .. ها هى دبلتك .

نهضت من مكانى وأمسكت ذراعها الرقيقة ، لكنى رأيت غضبها يزداد .. فتركتها على الفور وسألتها مندهشا :

ـ لم كل هذا ؟ ما الذى حدث ؟

ـ تخدعنى و توهمنى أنها مريضة عندك .. ثم تقول أنها انتحرت وأنك ذهبت للنيابة وانقذت زوجها من تهمة قتلها .. كل هذا الكذب لتمحى من ذاكرتى المشهد العاطفى الذى ...

قطعت (أميرتى) جملتها وخلعت الدبلة .. وقذفتها لتستقر عند قدمى وهى تقول والدموع تسيل من عينيها الجميلتين :

ـ لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى .

هذا الموقف المأساوى يتكرر كثيرًا هذه الأيام .. لابد أن أتزوج هذا الملاك قبل أن أفقدها إلى الأبد .

نظرت خلفى لأبحث عن المرأة التى كانت سببًا فيما حدث الآن والتى تقول عنها أميرتى أنى ادعيت موتها وأنى ذهبت إلى النيا ..

يا إلهى .. هل هذا يعنى أن أميرتى قد رأت (شذى) ؟ أنا أعلم أنهم لم يقبضوا عليها بعد ولكنى لم أتوقع ظهورها هكذا فجأة وبهذه البساطة .

ولمحتها .. كانت تسير بسرعة خارجة من الكازينو .. أما (نادين) كانت تسير بسرعة ولكن .. فى الاتجاه الآخر ..

التقطت الدبلة وهرعت وراء ..

هل أهرع وراء خطيبتى أم وراءها ؟

فى النهاية حسمت أمرى .. لقد ترددت من قبل وكدت أفقد خطيبتى للأبد .

لا .. لن أتردد هذه المرة .. وهكذا هرعت وراء أميرتى .

أما (شذى) فبالتأكيد سيقبضون عليها يومًا ما .

* * *

ذهبت إلى منزل أميرتى وطرقت الباب مرات عديدة ولكن .. لا أحد يرد .

أشعر أن التاريخ يعيد نفسه .. لكن كيف سأقنعها ببراءتى هذه المرة ؟ هل أطلب منها الذهاب إلى قسم الشرطة لتعرف الحقيقة بنفسها ؟ طبعًا لا .. لكنى وجدت الحل .

حاملاً الدليل معى .. أطرق الباب مجددًا .. ثم أقول لها :

ـ افتحى الباب يا (نادين) .. معى دليل براءتى .

كنت أحمل معى مذكرات (شذى الجندى) .

لقد ساعدتنى هذه المذكرات كثيرًا فى اثبات صدق ما أقوله .. شرحت لأميرتى حالة (شذى الجندى) .. وفسرت لها مسألة موت (جميلة) واتهام (قدرى) بقتلها .

شرحت لها أن (شذى) جاءتنى العيادة لتدعى أنها (جميلة) وانها مجنونة وأنها تعشق الانتحار ... إلخ .

أخبرتها أن (جميلة) التى ماتت لم تكن مجنونة ولم أرها قط .. وفى نفس الوقت لا تشبه السيدة التى ادعت أنها هى .. أعنى (شذى) .

فى النهاية قلت لها يائسا :

ألا تصدقيننى ؟

هنا سمعت صوت التكة الجميل الرائع .. هذا الصوت يعنى أن الباب سيُفتح .

لن أصف لكم مدى سعادتى عندما رأيت وجهها الجميل يشرق بابتسامتها الرائعة وسمعت صوتها الرقيق يقول :

ـ المشكلة أنى أصدقك .

* **

جاءنى اتصال من السيدة (شذى) وانا جالس فى عيادتى ..

ـ آلو .. (ياسين)

ـ آلو .. من ؟ (شذى) ؟

ـ سأنتحر .

ـ اهدئى .. كل مشكلة لها حل .

ـ لا تحاول منعى من الانتحار .. (نادين) ستنتحر .. (نادين لابد أن تموت) .

ثم أنهت المكالمة .

لقد قالت من قبل (جميلة) ستنتحر .. وكانت تدعى أنها (جميلة) .

ثم قتلتها بعد إنهاء المكالمة ..

وجعلت الجريمة تبدوكانتحار .

هذه المرة تدعى أنها (نادين) وتقول (نادين) ستنتحر ..

هل معنى هذا أنها سوف ....

يا إلهى .

وهل ستنفذ بعد إنهاءها المكالمة ؟

الأمر محير و مخيف .. لابد أن أحذر (نادين) .. لابد .

يجب ألا تخرج من المنزل ولا تفتح الباب لأحد حتى يتم القبض على (شذى) ويتم تسليمها إلى السجن أوالمستشفى .

أدعوالله ألا يحدث لأميرتى أى مكروه ..

لوان شكوكى صحيحة .. فإنها فى خطر الآن ..

* * *

اتصلت على الفور بـ (نادين) .

ـ آلـو ..

ـ آلـو ..

ـ هل (نادين) موجودة ؟

ـ من ؟ د. (ياسين) ؟

ـ هل (نادين) موجودة ؟

ـ كيف حالك يا دكتور ؟

ـ بخير .. هل (نادين) موجودة ؟

ـ لماذا لم تأت لزيارتنا بالأمس ؟ لقد كنا ..

ـ أجيبيني بالله عليك .. هل (نادين) موجودة ؟

ـ هل تريد أن تكلم (نادين) ؟

ـ نعم .. هل هى موجودة ؟

ـ لا .. ليست هنا الآن .

ـ أين هى ؟

ـ لقد خرجت لتشترى الـ ...

ـ متى ؟

ـ منذ ربع ساعة تقـ ...

ـ هل خرجت بمفردها ؟

ـ نعم .. ما الأمر يا دكتـ ...

ـ متى ستعود ؟

ـ لا أعلم .. هل هناك شيـ ...

ـ هل ستغيب ؟

ـ حسب الـ ...

ـ من فضلك .. لو عادت أخبريها ألا تخرج ثانية حتى آتى ولا تفتح الباب للسيدة (شذى) .. التى رأيتموها فى شقتى .

ـ ما الأمر ؟

ـ من فضلك لا تنس أن تخبريها بذلك .

ـ سوف أفعل .

ـ وأنا سآتى إليكما على الفور .

ـ تشرف يا دكتور .

بعد أن أنهيت المكالمة خرجت من العيادة على الفور .. اعتذرت للمرضى .. ركبت سيارتى وانطلقت بسرعة جنونية إلى منزل خطيبتى .

يبدوانني سأغير الجملة التى على الغلاف إلى (مذكرات طبيب نفسى .. يصارع للحفاظ على حياته والحفاظ على حياة خطيبته) .

* * *

22 ـ الرسالة الأخيرة ..

كانت أميرتى عائدة إلى منزلها ..

وجهها كالبدر تزينه ابتسامتها الرقيقة العذبة البريئة .. تحمل بيديها حقيبة أنيقة وضعت بها ما اشترته .. تنظر إلى الطريق جيدًا قبل أن تعبره ..

لكنها لم تنتبه للسيارة المسرعة التى كانت تنطلق كالصاروخ نحوها ..

صدمتها ..

سقطت فى أقل من ثانية على الأرض .. لم تلمح السيارة التى صدمتها .. لم تلمح حتى لونها .

أما أنا .. فأعرف شكل هذه السيارة وأعرف رقمها جيدًا ..

كنت موجودا هناك .. ورأيت كل شىء .. رأيت هذا المشهد الرهيب القاسى .. المشهد الذى لا يمكن أن يمحى من ذاكرتى للأبد .. مشهد الملاك الذى سقط متألما على الأرض .. وفقد وعيه تمامًا ..

نقلتها على الفور إلى أقرب مستشفى .. ودعوت الله كثيرًا ..

من أجلها .

* * *

فتحت أميرتى عينيها أخيرًا ..

كانت ترقد على سرير وأنا أجلس بجواره بينما أمها كانت تجلس بجوار النافذة تقرأ فى القرآن .. رأتنى فسألتنى مندهشة بصوت واهن :

ـ أين أنا .

هنا نهضت أمها واندفعت إليها لتحتضنها باكية وقالت :

ـ الحمد لله .. الحمد لله .

ـ ما الذى حدث ؟

ربت على يديها وأنا أجاهد لأمنع دموعى من الخروج قائلاً :

ـ الحمد لله .. لقد قلقت عليك كثيرًا .

ـ هل أنا فى مستشفى ؟ أنا أتذكر أننى كنت أعبر الطريـ ...

قاطعتها قائلاً :

ـ لا ترهقى نفسك بالتحدث .. يلزمك الراحة التامة .

أما أمها فقالت لها وهى ترمقنى بنظرة لم تعجبنى على الإطلاق :

ـ إنها إحدى مرضى خطيبك .. مجنونة من مجـ ...

بترت جملتها عندما لمحت الحزن فى عينى .. فقالت :

ـ لكنه والحق يقال .. لقد حذرنى هاتفيا فى الوقت الذى كنت فيه بالخارج .. وعندما وقع الحادث نقلك إلى المستشفى بأقصى سرعة .. وأصر على البقاء بجوارك هنا .. وترك عيادته ومرضاه من أجلك .. إنه يحبك يا (نادين) .

نظرت إلىّ (نادين) بكل رومانسية وقالت :

ـ أعلم هذا جيدًا .

لكن أمها قطعت اللحظة الرومانسية قائلة :

ـ الحمد لله أنه كان موجودا وقت وقوع الحادث .. لا أعلم ما الذى كان سيحدث لو لم يكن هناك لكن .. سأعود لأقول أن كل هذا حدث بسبب مجنونة أرادت قتلك .

فهمت على الفور مغزى المقدمة التى تقولها حماتى واستنتجت الموضوع الذى تنوى طرحه الآن .. قلت بهدوء :

قدر الله وما شاء فعل .

منذ متى وأنا هنا ؟

فردت حماتى بدلا منى قائلة بحسرة :

ـ منذ ثلاثة أيام .

ـ وتركت عيادتك ومرضاك كل هذه المدة .

لم أستطع أن أقل شيئًا .. ماذا أقول ؟ هل أقول أنى سأفعل أكثر من ذلك من أجلها ؟ هل أقول أنى مستعد أن أفعل المستحيل من أجل إسعادها ورؤية ابتسامتها العذبة ؟

أما حماتى فمازالت تلمح .. ولم تصرح :

ـ لكن هذا كثير .. كل قريباتها وصديقاتها المتزوجات لم يحدث لأى واحدة منهن مثلما حدث لها .. سواء فى فترة الخطوبة أوبعد زواجهن .. يومًا يأتى قاتلاً يريد خنقها ومجنون آخر يعتقد أنها خطيبته .. ومجنونة أخرى تحاول قتلها بسيارتها لأنها ..

قاطعتها أميرتى قبل أن أفعل أنا قائلة :

ـ ماما .. لا داعى من هذا الحديث .

ـ يا بنيتى .. أعذرينى .. لقد سافر والدك إلى الخارج و ترك لى مسئولية رعايتك أنت وأخوتك .. ولقد حافظت دائمًا على أن تعيشوا فى هدوء وسلام .. أما هذه المخاطر التى نتعرض لها بين الحين والآخر لا تعجبنى إطلاقا ولن أستطيع تحمل المزيد .

مزيد من الصمت لن يفيد .. لذا قررت التحدث وقررت المبادرة قبل أن ..

ـ (نادين) .. اسمعينى جيدًا .. أنا أقدر حبك لى ولكن والدتك معها حق .. أنت فتاة رائعة يتمناك الكثير .. ما الذى يجبرك على خطوبة مثل هذه تعرضك للمخاطر دوما ؟ وأنا لا أستطيع أن أعدك بزوال هذه المخاطر .

ـ (ياسين) .. لا تقل هذا .

ـ من فضلك .. اسمعينى جيدًا وفكرى فى الأمر .. أنا أقدر موقف والدتك التى تخاف عليك ولا ألومها على شىء .. إنها أم ومن حقها أن تفكر لابنتها فى أفضل حياة .

ـ معك حياتى ستكون بإذن الله أجمل حياة .

ولكن .. فكرى فى القدر الذى جعلك تتعرضى لهذه المخاطر لمجرد أنك خطيبتى .

أنا سعيدة بهذا القدر .

لم أستطع حبس دموعى أكثر من ذلك .. خرجت منهمرة أمام هذه الكلمات العذبة

التى أطربت أذنى وهزت مشاعرى بعنف شديد .. ما كل هذا الحب والحنان الذى تغمرنى به هذه المخلوقة ! .. أنا أحسد نفسى .. أما حماتى فقالت متذمرة :

ـ أنتم أحرار .

ابتسمنا سويا ثم عدت أسترجع ذكرياتى عن يوم الحادث ..

* * *

تركت (نادين) بالمستشفى وذهبت لأعرف ما حدث لـ (شذى) ..

هل قبضوا عليها أم لا ؟

كنت أعرف عنوان شقتها جيدًا ، لذا لم أستغرق وقتا طويلاً فى الوصول إليها ..

ودخلت الشقة .. كان التجمع شديدا جدًا بالداخل .. الأمر لا يطمئن أبدًا .

أين هى ؟ ولم هذا التجمع هنا ؟ ما الذى حدث ؟

ومن قلب الزحام .. ظهر أمامى فجأة ضابط .. قال لى :

د. (ياسين العوضى) ؟

نعم .

صمت للحظات ثم قال بحزن :

البقاء لله .

اقتحمت الزحام وقلبى يخفق من القلق والتوتر .. لابد أن أراها .

سمعت الضابط خلفى يقول :

لقد انتحرت .

نظرت إلى جسدها الساكن على الأرض .. ثم التفت إليه وقلت منزعجا :

لماذا تقول هذا ؟

الأمر واضح و لقد كتبت رسالة قبل موتها تؤكد فيها عزمها على الانتحار .

قلت له مندهشا :

رسالة !

نعم .. رسالة موجهة لك يا دكتور .

تمالكت نفسى ومنعت الدموع من السقوط وخرجت الكلمات منى بصعوبة :

هل يمكننى .. أن أرى .. هذه .. الرسالة ؟

بالطبع يا دكتور .

وفى خلال ثوانى .. كنت أمسك بيد مرتعشة الرسالة واقرأها .

وعندما انتهيت منها سألته :

كيف انتحرت ؟

قذفت بنفسها من النافذة .

استنتجت ذلك .

سألنى الضابط :

هل أنت خطيبها ؟

لا .. أنا طبيب نفسى وهى تدعى (شذى) .. وكانت مريضة عندى .. وفى يوم رأت خطيبتى (نادين) .. ورأت ما حدث لها عندما اعتقدت أنى أخونها .. فتخيلت نفسها (نادين) .. وانتحرت .

ـ (اعتقدت أنك تخونها) .. و(تخيلت نفسها) .. أنا لا أفهم شيئًا .

ـ القصة طويلة .. هل لديك الوقت لسماعها ؟

ـ نعم .. تفضل .

* * *

أتأمل وجه أميرتى وافكر فيما حدث ..

لقد كانت (شذى) مجنونة فعلاً .. ولقد حاولت الانتحار أمامى من قبل .. أتساءل الآن : هل كانت تحاول الانتحار فعلاً ؟ أم أنها كانت تدعى المحاولة فى إطار تنفيذ خطتها العبقرية ؟ أم هذا وذاك ؟

أتذكر الآن جلساتى الطويلة معها ..

كنت أصدقها وكنت أكذبها طيلة الوقت .. والسبب هو أنها كانت مجنونة وفى نفس الوقت تدعى الجنون .

لقد اعتدت على مقابلة من هو مجنون بالفعل .. ومن يدعى الجنون .. لكنى لم أتخيل أنى سأقابل يومًا الاثنان معًا فى شخص واحد .. شىء نادر .. بل مستحيل ..

إنها حقًا حالة مستحيلة !

نظرت لحماتى فرأيتها تتحدث مع الطبيب بشأن خروج (نادين) من المستشفى أما أميرتى فقد نظرت لى والابتسامة تزين وجهها .. قلت لها بهدوء :

ـ أود أن أخبرك بأمر ما .

قالت لى وعلى شفتيها تمرح ابتسامة عذبة :

ـ ستعترف بحبك لى للمرة الألف .

ـ لا .. سأخبرك بشىء لا تعرفينه .

ملامح الجدية على وجهى جعلتها تدرك أن الأمر ليس له علاقة بالرومانسية على الإطلاق .. فقالت بتوتر :

ـ ما الأمر ؟ لقد أقلقتنى ؟

التقطت نفسًا عميقًا ثم قلت بهدوء :

ـ (شذى) ليست هى التى صدمتك بسيارتها .

واعطيتها الرسالة لتقرأها .

* * *

أكتب هذه الرسالة إلى حبيبى (ياسين العوضى)

نعم .. مازلت حبيبى .. مازلت أحبك ..

رغم كل شىء مازلت أحبك .. وسأموت وأنا أحبك ..

لكن لن أغفر لك أبدًا ما حدث .. لأنى لم أتوقع منك الخيانة أبدًا .

لن أستطيع نسيان ما رأيته .. ولن أستطيع الحياة معك .. ولن أستطيع الحياة مع غيرك .. ولن أستطيع الحياة بدونك .. لذا قررت إنهاء حياتى بهذه الطريقة الهادئة لأتخلص من حبك واخلصك منى .

أتمنى لك حياة سعيدة مع زوجتك (جميلة) .. واتمنى ألا تخونها كما خنتنى معها .

الوداع

المخلصة إلى الأبد

خطيبتك .. (نـاديـن)

* * *

فى العدد القادم .. سنتحدث عن حالة السيدة (ماجدة) .. سيدة الأحلام .. الفراشة السوداء .. لقد تناولنا حالتها فى العدد الأول .. من كان يظن أنها ستأتى لعيادتى من جديد ؟

ولقد كانت عودتها بمثابة إنذار آخر شديد اللهجة .. لتكن مستعدا من الآن .. كوابيس أخرى فى الطريق .. إنها تحلم دائمًا بكوارث شنيعة .. ومصائب مريعة .. وأحلامها ليست مجرد أحلام .. المشكلة كما عهدناها أنها أحلام تتحقق .

والسؤال يطرح نفسه من جديد : هل تمتلك فعلاً هذه الحاسة ؟ والسؤال الأهم : هل سأستطيع علاجها هذه المرة أم أن قتلها أسهل ؟

كلمة أخيرة : لواعتقدت أن التاريخ يعيد نفسه فأنت مخطىء .. لأن التاريخ أذكى منى ومنك .. ومنا جميعًا .

ولكن هذه حالة أخرى ..

حالة خاصة ..

جدًّا .. جدًّا .

جدًّا .

تمت بحمد الله

لمراسلة المؤلف ..

بالبريد العادى .. على عنوان المؤسسة ..

ويكتب على المظروف الخارجى (سلسلة حالات خاصة)

أو بالبريد الإلكترونى على

halat_khasa@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٣٧٧٤

٩٧٧ ـ ٣٧٨ ـ ٢٥٠ ـ ٦

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية
٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - الرقم البريدى : ١١٨١
ت : ٦٨٧٥٥٥١ - ١٨٣٧٩٤ أو الرقم المجانى ٠٨٠٠٠٤٠٠٠

حالات خاصة

مذكرات طبيب نفسى ،
يصارع للحفاظ على حياته ،
والحفاظ على سلامة عقله .

محمد رضا عبد الله

حالة مستحيلة

.... إنها حقا حالة مستحيلة !

العدد القادم

حالة الفراشة السوداء

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع